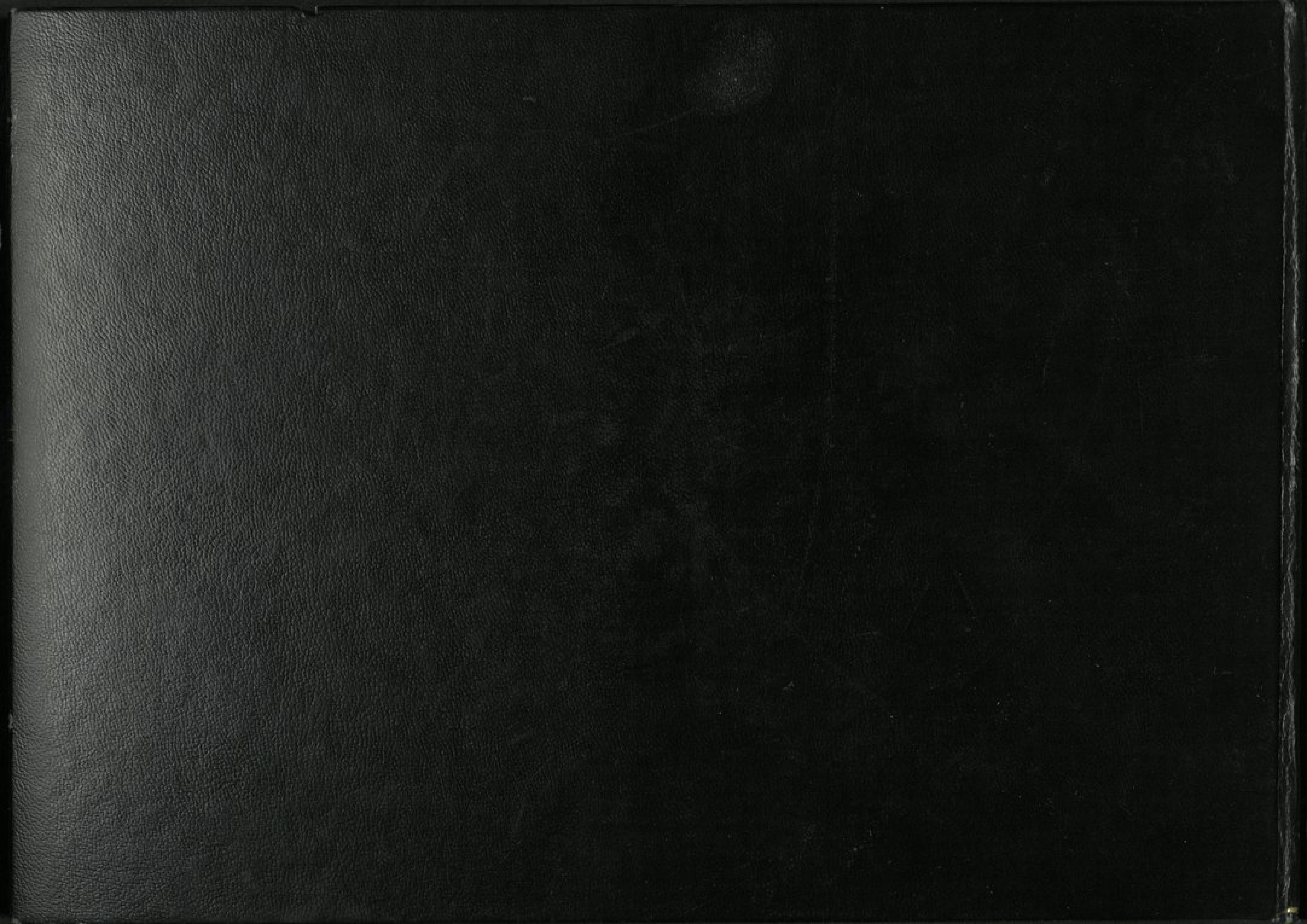
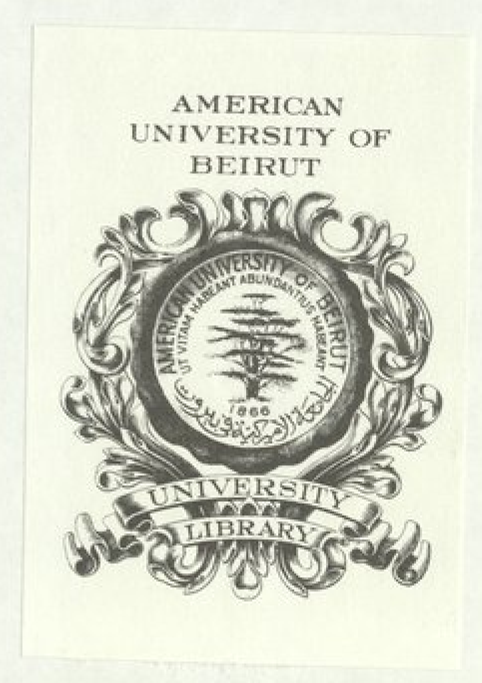



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

بيروت

تاريخها وآثارها

بقلم

الاب لويس شيخو اليسوعي

ظهر تباعاً في مجلة المشرق

وأُضيفت اليهِ عدَّة إفادات وفهارس

طُبع

في مطبعة الآباء اليسوعيّين

بيروت

سنة ١٩٢٥

بيروت

تاريخها وآثارها

توطئة

لما كانت الحرب الكونيَّة منتشبة وبيروت تحت رحمة الدولة التركية تعيَّن على كلّ ولايتها رجل ذو حزم وإقدام كخلف لسامي بكر بك نعني بهِ عزمي بك . فضبط زمام الامر وجرى في حكمهِ بعدل وانصاف . ولولا تحكُّم جمال باشا عليهِ لعلَّهُ كان خفَّف من وطأتهِ ولطَّف نوعاً بعض الفظاظة في طباعهِ (١

ومما يذكر لهُ فيشكر انَّهُ قصد ان يرفع منار الولاية الموكولة الى همتهِ ولاسيا مركزها بيروت ، ليزيل عنها ما يشينها ، ويُجلي محاسنها بما يزينها ، فلا تلبث ان تباهي حواضر المدن الراقية بابنيتها الفخمة وشوارعها الفسيحة وحدائقها الغنّاء فتُصبح كتاج على مفرق البلاد الشاميَّة وكغرَّة على جبهتها . على انَّهُ لم يحقِّق من تلك الاماني الّا القسم السَّلبي بما اخربهُ من الاحياء القذرة وبذلك مهَّد سبيلًا للدولة الفرنسويَّة لتقيم مكانها المباني الجليلة وتشيّد المعاهد الجميلة على طراز الهندسة العصريَّة

وقد سبق لنا في مجلة المشرق (١٩ [١٩٢١] : ٣٢٩) ذكر امرهِ بتقويض ابنية الاسواق العتيقة التي كانت تعشّش فيها الجراثيم الوبيئة ووقوف العملة على آثار بناء قديم عهِدَ الينا والى الاجزائي المرحوم مراد بك البارودي ان نقدّم لهُ فيها تقريرًا رسميًا مع وصف ما وُجد من الكتابات والخزفيَّات والنقوش فلبَّينا طلبهُ . ثمَّ عرض على كاتب هذه الاسطر ان يصنف تاريخًا مختصرًا لبيروت وآثارها القديمة وسمح لنا وقتئذٍ بمراجعة مكتبتنا الشرقيَّة التي كانت أُقفلت منذ اوَّل الحرب

فباشرنا بهذا العمل بطيب خاطر وان لم يكن بيننا وقتئذٍ احد من الاختصاصيين من اخوتنا الرهبان لنقتبس من معارفهم ونسترشدهم فنستند الى آرائهم . ثمَّ انجزنا

١) اشاعت بعض الجرائد خبر وفاة عزمي بك ولم يتأكد الخبر حتى اوائل السنة الحاليَّة ١٩٢٥

العمل بعد أشهر وانتظرنا ريثما يطلبهُ الوالي منّا وكانهُ نسي امرهُ لوفرة اشغالهِ ولاسيما بعد ان دعانا متصرّف جبل لبنان اسماعيل حقّي بك بإغراء رجل شريف من اعزّ اصدقائنا سعادة حسين كاظم بك الى تأليف دليل للبنان وضعناهُ مع لجنة من الادباء ونُشر في المطبعة الادبيَّة فجاء اكبر وأوفى كتاب عن لبنان وسائر احوالهِ

أمّا صحائفنا في تاريخ بيروت فبقيت منزوية بين اوراقنا حتى ذكّرنا بها احد الادباء وحثَّ رجلاً اثرياً من اهل الانتداب على ان يطالبنا بها ويدعونا الى نشرها في مجلّتنا لعلّها تأتي بفائدةٍ لدارسي تاريخ الوطن . فها نحن مجيبون لطلبتهِ مستميحين عذراً من قرّائنا الادباء لما يعثرون عليهِ في هذا العمل من النقص والخلل

مقدمة

نظر عامّ في تواريخ بيروت

من العجب العجاب انَّ حاضرة بيروت مع ما طرأ عليها على توالي الدهور من الطوارئ الهائلة وحدث فيها من الوقائع الخطيرة لم يُكتب حتى اليوم تاريخها البهيج . وغاية ما ورد عنها بعض اسطر قليلة لا تتجاوز اذا جُمعت الثلث او الاربع الصحائف تجدها متفرقةً في بطون تواريخ قدماء الكتبة من يونان ورومان وسريان

ومثلهم العرب فانَّ تآليفهم لا تحتوي عن بيروت الّا الفوائد النزرة التي لا تفي برغبة الباحثين . وقد سعى بينهم سدّاً لهذه الثلمة وتلافياً لهذا الخلل احد ادباء القرن التاسع للهجرة والخامس عشر للميلاد وهو من سُلالة امراء بني الغرب المشهورين بالبُحتُريّين يُدعى صالح بن يحيى صنّف كتاباً وسمهُ بتاريخ بيروت وقد وجدنا نسخةً فريدةً من تأليفهِ في مكتبة باريس العموميَّة فاستحضرنا رسمها بالتصوير الشمسي ثمَّ زيَّنّا بها جيد مجلّتنا المشرق لمّا ظهرت لاوَّل مرَّة سنة ١٨٩٨ وتابعنا نشرها مدَّة سنتين ثم طبعناها على حدة واضفنا اليها فهارس واسعة وعدَّة معلومات وملحوظات (١

١) وقد اخذ الدكتور لويس ابي نادر وميخائيل مراد صاحبا مجلّة العاصمة المطبوعة في ريوجانيرو في البرازيل بطبع هذا الكتاب في اعداد مجلّتهما نقلاً عن المشرق وكان اولى بهما ان ينشرا له طبعة منفردة

لكنَّ هذا التاريخ في حقيقة الحال مع فوائده لم يذكر عن بيروت الّا ما لا يشفي العليل ويروي الغليل . فانَّ صاحبهُ بعد كلام اجمالي عن بيروت وقِدَمها وآثارها يتخطّى الى ذكر بعض التقاليد التي كان يتناقلها اهل زمانهِ ثمَّ ينقل عن مؤرخي العرب ما كتبوهُ عن فتوحات بيروت المتوالية بعد الاسلام وخصوصاً في عهد الفرنج الصليبيين الى ان ينتهي الى تاريخ اجدادهِ من بني الغرب فيفيض في مآثرهم في بيروت وانحاء لبنان

وقد اجتهدنا وقتئذٍ في ان نثبت في ذيل الكتاب ما امكنّا جمعهُ عن بيروت من كتب التاريخ على قدر ما كانت تسنح لنا الفرصة ويسمح قصر الوقت وتراكم الاشغال

وما خلا هذا التاريخ توجد فصول مختلفة في دائرة المعارف البستانيَّة وفي كتب الفرنج من مرسلين او اثريين او سيّاح وفي برنامجات سوريَّة وبيروت يُستفاد منها بعض المعلومات للازمنة الاخيرة

فكل هذه الشذرات والفوائد المتشتتة لو جُمعت ورُويت منظمةً في ابواب مختلفة تأتي بلا شك بالضالَّة المنشودة وتعريف اخصّ ما جرى في بيروت من الاخبار وما اكتُشف فيها من الآثار . فبكل سرور وارتياح نعود اليوم الى هذا البحث اللذيذ ليتألف منهُ خلاصة تاريخ تلك المدينة التي اصبحت اليوم عاصمة لدولة لبنان الكبير فيزيد اعتبار اهلها لها اذا وقفوا على نسبها الاصيل وذكروا ماضيها الجليل

ونقسم هذه الابحاث الى قسمين نخصّ القسم الاوَّل منها باخبار بيروت ومآثرها من قدم الزمان الى ظهور الاسلام . والقسم الثاني بتاريخها منذ الفتح الاسلامي الى أيامنا مع ذكر ما عثروا عليهِ من الآثار في هذين الطورَين



القسم الاول

اخبار بيروت ومآثرها في القدم الى ظهور الاسلام

البحث الاول

في موقع بيروت

انَّ الموقع الذي اختارهُ الاقدمون لبناء مدينة بيروت لَمن انسب المواقع لحاضرة كان من شأنها ان تجمع خواصّ حواضر البلاد فانها بريّة بحريّة سهليّة جبليّة في وسط سواحل فينيقية تتوارد اليها خيرات الاقطار المجاورة على سواء من جهة الاناضول وبلاد حمص وحماة وحلب. ومن الجنوب من نواحي مصر وفلسطين. ومن الشرق من دمشق واحياء العرب. ومن الغرب من قبرس وجزائر البحر

وقد أنعم الله على بيروت باعتدال الهواء فلا يلحق بأهلها أذى البرد القارس شتاء ولا لظى الحرّ اللافح صيفاً فيحميها لبنان عن السَّموم وتلطِّف الريح البحرية شدّة حرارتها في الصيف هذا فضلًا عن قربها من الجبل اذ يستطيع اهلها في أيسر الزمان ان يتمتَّعوا بنسيمهِ العليل ويتهنأوا بهوائهِ النقي البليل

ويستدلّ على حسنات هذا الموقع من درجات طول بيروت وعرضها فانَّ طولها بالنسبة الى سَمْت باريس شرقياً ثلاث وثلثون درجة وسبع دقائق وبعض الثواني. وعرضها اي بُعدها عن خطّ الاستواء نحو الشمال ثلاث وثلثون درجة واربع وخمسون دقيقة فناهيك بذلك دليلًا محسوساً على مميّزات وضعها. ثمَّ بقربها نهرها المسمَّى ماغوراس (Magoras) الذي يخصِّب ريفها. وكانت مياهُهُ قديماً تجري الى انحائها بقني وقناطر ترى حتى اليوم آثارها فتزيد اهاليها طيبَ السُّكنى ورغد العيش

ولبيروت راسٌ يدخل في البحر الى نحو تسعة كيلومترات فيجعلها كما قال بعض القدماء كملكةٍ ترتفق الى الجبال وتغسل قدميها في غمر البحر او بالحري كسلطانة تبسط على مملكة البحار سيطرتها المظفَّرة. ومنذ عهدٍ لا يعلم قدرهُ الّا

الله تمدُّها خوافق الرياح التي تهبُّ من جانب مصر بكميّات من الرمل الذي يسهل تحويلهُ الى تربةٍ مخصبة توليها مرافق وخيرات لا تُحصى

البحث الثاني

في جيولوجية بيروت

يرجح علماء الجيولوجية انَّ رأس بيروت كان قبل التاريخ منقطعاً عن البرّ تحيط بهِ مياه البحر على مدارهِ. فلم تزل الرياح الجنوبية تدفع اليهِ كثباناً من الرمل حتى ألصقتها بالجبل واغنتها بتلك السهول التي تزهو فيها غابات الصنوبر وهي تُعدُّ من اوفر موارد غناها

ويؤيد هذا الرأي ما تحقَّقهُ علماء طبقات الارض وبيَّنهُ في مجلَّة المشرق (١ [١٩١٨] : ٣٩٦) احد اساتذة كليَّة القديس يوسف الاب زُموفن حيث قال: «ان الوادي الذي يجري فيهِ نهر بيروت مع ما يجاورهُ من السهل كان مغموراً بمياه البحر قبل حلول الانسان فيهِ وكان هناك خور كبير يجمع بين خليج مار جرجس جنوبيّ البلدة ومياه البحر التي يصبُّ عندها وادي شحرور»

واتى بالبرهان على ذلك مستدلًا بالرواسب البحرية التي تُرى في تلك الجهات في عدة مواضع من سفح لبنان وبقرب سكة الشام الجديدة عند المحل المعروف بلوكندة المطران حيث توجد قطعة كبيرة من تلك الرواسب تعلو عشرة امتار فوق سطح البحر ومثلها قُلَّة مار دمتري والربوة التي عليها بُنيت ثكنة البلدة المحوَّلة الى السراية الكبرى فان كلتيهما تتركَّب من الرواسب عينها وتربتُها كتلةٌ من الرمل ودقيق الحصى والاصداف البحريّة والحجارة المصقولة باحتكاك مياه البحر كما هو معهود في السواحل

وليس هذا الارتفاع عمل الرياح البحرية فقط بل هو احدى الطوارئ الطبيعيَّة بفعل العوامل الباطنة التي ترفع ببطء القشرة الارضيَّة وأديمها في السواحل كما اثبتهُ الجيولوجيُّون عن عموم شواطئ البحار وتبيَّنوهُ ايضاً في شواطئ سوريّة وفلسطين

✳

البحث الثالث

في اسم بيروت

اسم بيروت اسمٌ ساميٌّ فينيقيٌّ كبقيَّة اسماء المدن الواقعة في سواحل الشام بين اللاذقيَّة وصور · إلّا انَّ العلماء لم يتَّفقوا على معنى الكلمة · فذهبوا الى آراء شتى · فمنهم من فسَّرها بمعنى بَريت العبرانيَّة (ברית) اي الاتّفاق والعهد وزعموا أنَّها «بَعل بَريت» المذكورة في سفر القضاة (٩ : ٤) والكلام هناك على مدينة في السامرة

وقال غيرهم انَّها « بَرُوت » (ברות) في العبرانيَّة ايضاً بمعنى القُوت والطعام ·

وظنَّ قومٌ انها المدينة بَرُوتا (ברותה) المذكورة في نبوءة حزقيال (٤٧ : ١٦) والصواب انَّ موقع هذه كان في شمالي فلسطين ·

واصحُّ من هذين الرأيين قول من اشتقَّ اسم بيروت من الارامية بَروتا (ܒܪܘܬܐ) ومعناها السرو او الصنوبر لوجود اشجارهما منذ القدم في جوار بيروت · ويوافق هذا الاسم في الاشوريَّة «بُراشو» وفي العبرانيَّة (ברוש) قيل انَّ بيروت سُمّيت بهذا الاسم تذكارًا للإلهة الفينيقيَّة عشترت معبودة بيروت التي كان السرو رمزًا عنها · وهذا الرأي قديم اورده فيلون الجُبَيلي عن اوَّل مؤرخ لفينيقية سنكُن يَتُن البيروتي السابق لعهد المسيح (Historicorum Græc. Fragmenta, II, ed. Didot, p. 136) · وهو يدعوها (Βηρούθ) · وتبعها في هذا الرأي بعض المحدَثين من جملتهم الاب بطرس مرتين اليسوعي في تاريخهِ اللبناني الذي طُبع منهُ بعض الفصول (اطلب تاريخ لبنان ص ٣٨٣) · وعشترت هذه هي إلهة العشق والجمال التي عرفها العرب باسم الزُّهَرة او اللات والرومان باسم ڤينوس (Vénus) وسيأتي عنها الكلام في فصل آخر · ولعلَّهم اشاروا بهذا الاسم الى حسن موقع بيروت وجمالها

وقد صدَّق الكاتب اليوناني القديم هستيسون الميلطي على انَّ بيروت دُعيت بهذا الاسم اشارةً الى عشترت لكنَّهُ يشتقُّ اسمها من اصل آخر من «بيروت» او «ابيروت» (אבירות) بمعنى القوَّة و«أبير» بالعبرانية القوي الشجاع والحريز المنيع · وربَّما اطلقوا

هذا الاسم على الثَّور (المزمور ٢١ : ١٣) الذي كان ايضاً من صفات عشترت يصوّرونها وعلى رأسها شبه الثور

وليس بين آراء القدماء رأي أرجح في تفسير اسم بيروت من اشتقاقهِ من البئر وهو يُجمع في العبرانيَّة على «بئروت» (בארות) اي الآبار وذلك لكثرة الآبار التي حفرها الاقدمون في احيائها وضواحيها تُرى الى يومنا آثارها الحسنة تحت المدينة · ويؤيد هذا الرأي ان اسم بيروت ورد في اللغة الاشوريَّة بالحروف الرمزيَّة الدالَّة على البئر · وكانت مياهها عذبة يشرب منها حاضرًا اهل بيروت قريبًا من دير راهبات المحبَّة · ولذلك ارتأى اسطفان البوزنطي من كتبة القرن الخامس للمسيح انها دُعيت بيروت لعذوبة مائها

وقد ثبت لبيروت اسمُها هذا مع تقلُّب الدول فرواهُ القدماء على صوَر مختلفة في اليونانيَّة واللاتينيَّة هكذا Berito, Beritho, Biritos, Birthon, Piriton (Βηρυτός) Berythus وكثيرًا ما يحوِّل اسمها بعضُ اليونان كنونس وتاوفان وبروكوبيوس فيدعونها بِرُويا (Βερόη) كما يدعون بهِ مدينة حلب · بل زعم المؤرخ نونُّس (Dionysiaques, XLI) ان هذا الاسم سبق بقيَّة اسمائها

وشاع لبيروت بين السريان خصوصاً اسم دِربي (ܕܪܒܝ او ܕܪܒܝܢ) كما يرويهِ بَر بهلول و بَر علي في معجمها · ودِربي احدى مدن اليونان · وقد دعاها اوغسطوس قيصر باسم ابنته يوليا لمَّا خوَّلها امتيازات المستعمرات Colonia Julia Augusta Felix) (Berytus

وفي عهد الصليبيّين جاء في تاريخ غليلموس الصوريّ (ك ١١ ف ١٣ ص ٤٧١) انَّ بيروت دُعيت قديمًا جِرسة (Gerse) او جريس نسبةً الى بانيها من اولاد كنعان بن حام ولا نعلم من اين اخذ هذه الرواية التي نقلها ايضاً ادريخوميوس (Adrichomius, *Miscellanea*)

البحث الرابع

قِدَم بيروت

لو أعَرنا سمعاً الى ما جاء في خرافات الاقدمين من الفينيقيّين لقُلنا انَّ اصل

بيروت يتّصل بعهد الآلهة ويرتقي الى اوائل الخليقة فانّ سنكن يتن اقـدم مؤرّخي فينيقية قد روى عنها ما شاع في زمانهِ اي القرن الرابع قبل المسيح فقـال (في الفقرة الثانية من تاريخهِ العدد ٨) : انّ الإله إيل او عِليون وهو اوّل ملوك جُبَيل اتّخذ لهُ زوجةً الإلهةَ المدعوة بيروت ثمّ بنى جنوبيّ جبيل مدينة دعتها زوجتهُ باسمها بيروت . وقيل بل بيروت اسم ابنتهما فدعَوا المدينة بها

وقال نونس الشاعر اليونانيّ في كتابهِ عن الإله ديونيسيوس او بخُوس (١ الذي صنّفهُ في القرن الرابع للمسيح : « انّ بيروت اوّل مدينةٍ بناها الاله إيل بنفسهِ وهي وحدها أُنشئت قبل مدن الارض وسبقت الاله فـايتون (اي الشمس) الذي يستعير القمر من ضوئه »

ثمّ اردف سنكن يتن قائلاً : « انّ ايل وهب بيروت لالـه البحر پوصيدون (Ποσειδῶν) الذي يدعوهُ الرومـان نبتون (Neptune) وللجبابرة المعروفين بالكبيري (Cabires) الذين اخترعوا فنّ الملاحة »

فبهذه المبالغات يُستدلّ على امرٍ واحد لا مراء فيه وهو انّ بيروت من اقـدم مدن العالم وان لم يمكنّـا ان نعرف بالتدقيق زمن بنـائها . ولو صحّ قول غليلموس الصوري بأنّ بانيها جريس او جرجيس او جرجاش الخامس من بني كنعان المنتسب اليهِ الجرجاشيون في سفر التكوين (١٠: ١٦) لثبت انّها بُنيت بعد الطوفان بزمن قليل اعني في الالف الرابع قبل المسيح

ومهما كان من مزاعم القدماء وآرائهم المتناقضـة نستطيع القول بـلا شكّ انّ اصول بيروت عريقة في القدم كاد نشؤها يخفى عن ابصار اقدم الكتبة وأدقّهم بحثاً . ولا بأس من القول بانّ البشر الاوّلين سكنوهـا قبل تمصيرهم الامصار وإنشائهم المدن في عهد العمران البشري اي في الطور المعروف بالظرّان السابق لطور المعادن . والدليل عليهِ مقرّر راهن يستند الى الآثار التي وقف عليها ارباب العاديّات ومن جملتهم حضرة الاب زُموفن وبعض اساتذة كليّتنا والمكتب الطبي الفرنساوي . وقد جمعوا قسماً كبيراً منها في متحفيها ومثلهما في متحف الجامعة الاميركانيّة ومتحف بيروت

١) Nonnus: *Dionysiaques* XLI, 67 et 91

العمومي الحديث . وهذه الآثار عبارة عن قطع من الصوّان وُجدت في طرَفَي بيروت قريباً من نهرها ماغوراس (Magoras) وعند رأسها الرملي الممتدّ جنوب المدينة بميلٍ الى الغرب . وهذه الحجارة الصوّانيّة مختلفة الهيأة منها ما هو اقدم عهداً وهو الصوّان المنحوت (silex taillés) وغيرها احدث زمناً وهو الظرّان المصقول (silex polis) . وبعض هذه المصنوعات هي من عظام الحيوان . وقد اتّخذ القدماء من كليهما ادواتٍ عـديدة على اشكال متباينة كالسهام والسُّنن والفؤوس والمناشير والمُدى يتوسّلون بهـا للدفاع عن نفوسهم ولصيد الحيوان ومقاتلة الاعداء ولكافّة امور معاشهم وبَيْنتهم (١

وكانت عيشة اولئك القوم في همجيّتهم الاولى فطريّة ساذجة فكانوا يـأوون الى الكهوف والمغاور في ايّام الشتاء . وقد وُجدت بقـايا من آثار طعامهم في مغـارة انطلياس بينها عظام حيوانات مفقودة في عهدنا كانوا يصطادونها . ويعيشون في بقيّـة فصول السنة تحت القبّة الزرقاء او ينصبون لهم خياماً من اغصـان الشجر او يتّقون حرارة الشمس بجلود الحيوان . فداموا على ذلـك زمناً مديداً حتى عنّ لهم ان يبتنوا عوضاً عنها المساكن البسيطة من الحجار او اللبن

ويؤخذ من اخبار ملوك الكلدان الاوّلين المنقوشة في بلاد بابل بالخطّ المسماري ان ملوك تلك الانحاء غزوا غير مرّة القبـائل السـاكنة في سواحل الشام في الالف الرابع قبل المسيح فبسط ملكهم نيرام سين عليها سيطرتهم ردحاً من الزمان . ولما ضعف سلطان الاشوريّين وانتقض حبلهم انتهز الاموريّون المالكون في مـا وراء بحيرة لوط فتقرّبوا الى جهات بحر الشام وتملّكوا على سواحلـهِ . والرأي الشائع اليوم انّ منهم كان الملك حمُّورَبي وسلالتهُ فسار من بلاد الشام الى بلاد بابل وغلب عليها ملوكها وقهر ما كان في تلك الجهات من القبائل الآراميّة والكنعانيّـة التي كانت تسكن السهول المجاورة لخليج العجم فهاجرت هذه العشائر الى جهات الغرب وسكنت مدّةً في براري الجزيرة يزاحم بعضها بعضاً . ولما أُنست من احوال الزمان ما يساعدها لاضطراب امر ملوك بابل تقرّبت الى سوريّة الشماليّة وسكنت فيهـا اعواماً حتى أدّى بها المسير الى سواحل البحر المتوسّط فامتزجت باهلها الاموريين ثمّ غلبت عليهم

١) اطلب في المشرق ١ [١٨٩٨] : ٩٧ و٢٦٣) مقالتين للاب زُموفن في وصف طوريّ الظرّان ومحطّاتها في بيروت وسواحل الشام

وكان ذلك في اواخر الالف الثالث قبل المسيح

واستوطنت هذه القبائل خصوصاً القسم المعروف بفينيقية وهو الساحل البحريّ الممتدّ بين اللاذقيّة وصور وعُرفوا بالفونيّين (Pouaniti, Pœni, Pæni) وهو الاسم الذي كان يطلقهُ المصريّون على سكان تلك الانحاء. ثمّ تصرّف اليونان بالاسم فدعوا البلاد فينيقية واهلها فينيقيّين مشتقّين الاسم من لفظة يونانيّة معناها النخل (Φοῖνιξ) لانهم وجدوا تلك الجهات كثيرة النخل زاهية باشجارها

ثمّ نمت تلك القبائل وتفرّقت واتخذت كلٌّ منها مستعمرةً فقويت شوكتها واصبحت على شبه مملكةٍ صغيرة مستقلّة بالحكم والتدبير عن سواها

واشتهر من هذه الممالك مملكة أرواد ومملكة جبيل ومملكة بيروت ومملكة صيدون ومملكة صور . والمرجّح انّ مملكة جبيل تقدّمت عليها وتفرّعت منها . وكانت بيروت اوّل مستعمرات الجبيليّين جعلوها مملكةً مستقلّة متاخمة لمملكتهم فتكون سبقت مملكة صيدون . وكان طول مملكة بيروت نحو ٣٦ كيلومترًا تمتدّ بين نهرَي الكلب والدامور . كأنّهم جعلوا الكلب حارساً لتخمهم الشمالي فدعوا بهِ النهر . امّا عرضها فكان لا يتجاوز عشرة كيلومترات من البحر الى سفح لبنان

ومع صغر هذه الممالك وضيق ساحتها قد نالت شأناً عظيماً لشهرة اهلها بالتجارة فكانوا يستجلبون برّاً مرافق البلاد الداخليّة الى البحر بواسطة قوافلهم العديدة فينقلونها على سفنهم الى مصر وجهات اليونان وبلاد الغرب وسواحل اوربّة كما تدلّ عليهِ آثارهم هناك ثمّ يأتون بمحصولات تلك البلاد الى فينيقية فينقلونها الى اقاصي العراق والعجم والهند . وقد وجدوا في حفريّات جبيل وسواحل فينيقية كثيرًا من مصنوعات المصريين وقبائل اليونان القديمة ومن الآثار الاشوريّة ما يُثبت كون فينيقية كانت بلادًا وسطًا بين اقاصي الشرق والغرب

على انّ تعدّد هذه الممالك الساحليّة مع صغرها كثيرًا ما سبب المنازعات والحروب بين اهلها . فانّ التاريخ القديم يذكر ان مملكة صيداء حاولت مرارًا قهر سلطة اهل بيروت واستعبادهم فردّهم البيروتيّون خاسرين

وكان صغر تلك الممالك يعرّضها لخطر اعظم من جانب الدول الكبرى . فان

ملوك اشور وبابل طمحوا اليها واغاروا عليها مرارًا وربّما ضربوا على اهلها الجزية يؤدونها لهم بما يطلبونهُ من الأرز وغيره من الاخشاب اللبنانيّة . وقد ورد اسم لبنان لاوّل مرّة في كتاباتهم المسماريّة على صورة لبنانو اي الجبل الابيض اذ رأوه معمّماً بالثلوج الغرّاء التي تكسوه حلية من البياض اليقق

وكذلك فراعنة مصر منذ سلالاتهم الاولى في اواسط الالف الثالث عرفوا كنوز لبنان المعدنيّة والنباتيّة واكرموا آلهة الفينيقيّين كالبعل وعشترت واقاموا في جبيل هيكلًا لمعبوداتهم الوطنيّة وجد الاثريّون وخصوصاً المسيو بيار مونته بقاياهُ الفخيمة . وكانوا يرسلون لهُ كل سنة التقادم والنذور والآنية الثمينة والألطاف المختلفة التي اكتشفوا منها كثيرًا بل ادخلوا في جملة معبودات المصريين عبادة آلهة فينيقية . فكانوا بهذه المعاملات السياسيّة والاقتصاديّة يُعِدّون دولتهم لفتح تلك البلاد كما حدث بعد ذلك في عهد السلالة الثامنة عشرة

وقد ورد اسم بيروت لاوّل مرّة في اثر هيروغليفي مصون في المتحف البريطاني في لندن يرقى عهدهُ الى السلالة الثانية عشرة وهو عبارة عن كتابة حرّرها احد وجوه المصريين يصف فيها رحلتهُ الى سوريّة ويذكر جملة ما زار من المدن مبتدئاً بالمدن الداخليّة الى حلبون يريد بها حلب الشهباء . ثمّ يذكر اخصّ المدن الساحليّة : جبيل ثمّ بيروت ويدعوها بيروتا ثم صيدون ثم صرفت

وقد تكرّر بعد ذلك اسم بيروت في جملة المدن التي فتحها الفراعنة في القرن السادس عشر قبل المسيح لا بل كان المصريون يطلقون على معدن الحديد اسم بضاعة بيروت « با ان برت » كما اثبت ذلك حضرة الاب لامنس في كتابهِ عن آثار لبنان (٢: ٢٢٢)

فيلوح من كلّ ما سبق انّ بيروت قد حلّت منذ قديم الزمن محلًا ممتازًا وان اصولها راقية الى الازمنة المظلمة حيث التاريخ كان مختلطاً بخرافات البشر

وان اعتبرتَ ضواحيها الداخلة في مملكتها وجدت ما يؤيد امر قدمها . ولاسيما ذلك النصب الذي حفرهُ رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم سيسوستريس دلالة على حلولهِ في سواحل فينيقية وهو اثر جليل في الصخور المشرفة على نهر الكلب حيث تُرى صورتهُ قائماً بإزاء إلههِ «راع» ساجدًا لهُ وتاريخ الاثر في السنة الرابعة لملكهِ

[illegible]

(Pouaniti, Poani, Poeni) [illegible]

[illegible] (Zw50Φ) [illegible]

[illegible]

(٢٢٢٢٢)

[illegible]

البحث الخامس

مبادئ تاريخ بيروت

ثبت لنا من آثار بيروت انها عريقة في القدم حتى انها تضاهي اقدم مدن العالم لكنّ تاريخها لا يُعرف منهُ شيء. راهن يسبق القرن الخامس عشر قبل المسيح وهذا لعمري امر يكفيها فخرًا وفضلًا على كثير من عواصم البلدان في البسيطة جمعاء.

ولا مراء في ان بيروت قبل ذلك العهد شاركت فينيقية في سرّائها وضرّائها في حُلوها ومُرّها لاسيما في ما نالها من غزوات ملوك الكلدان الاولين الذين احتلّوا سواحل الشام وغارات القبائل الاموريّة التي ضربت فيها اطنابها

امّا تاريخها في عهد المصريين فكشفتهُ لنا دفائن ارض مصر منذ ٣٧ سنة فقط حيث وقف الاثريون على سجلّات الملكين امينوفيس الثالث وابنهِ امينوفيس الرابع من سلالة الفراعنة الثامنة عشرة في القرن الخامس عشر قبل المسيح . وقد اكتُشفت تلك الآثار سنة ١٨٨٨ في تلّ العمارنة في جوار مدينة اسيوط في الفيّوم حيث يوجد اخربة مدينة قديمة كان الفراعنة اتّخذوها في ذلك الزمان كرسيًّا لمملكتهم ثمّ استولى عليها الخراب ففُقدت آثارها ومن جملتها سجلّات دواوينهم التي اكتشفها صدفةً احد الفلّاحين وهي منقوشة بالحرف المسماري على قطع من الآجرّ . امّا لغتها فهي اللغة الفينيقيّة . وكان للفراعنة في دواوينهم نَقَلة ينقلون لهم الى اللغة المصريّة مضامين تلك الكتابات

وقد ورد في تلك الآثار اسماء بعض مدن فينيقية ومن جملتها اسم بيروت على صورة «بيروتا» وقد مرّ في المشرق (٣ [١٩٠٠] : ٧٨٥–٧٩٤) لحضرة الاب لامنس فصل مستجاد في ما ورد عن لبنان في الآثار المذكورة . وهي عبارة عن مراسلات لأمراء وطنيين كانوا عمّالًا للفراعنة كالولاة يُعرفون باسم «خزانو» ويكاتبون مواليهم الملوك ويفيدونهم عمّا يجري في بلاد فينيقية الموكولة الى تدبيرهم ليكونوا على بصيرة من امرها

وكان اسم احد هؤلاء الولاة «ريب ادّي» أُقيم اميرًا على جُبيل . وقد ورد في مكاتباتهِ الى الفرعون اسم مدينة بيروت فيصفها كمدينة حرزة وكفرضة بحريّة مهمّة

ويذكر سفنها التجاريّة وبوارجها الحربيّة

ومما جاء هناك ايضاً رسالتان لاحد امراء بيروت اسمه «أمونيرا» يخبر فيها ملكهُ الفرعون عن خروجهِ لمحاربة اعداء الدولة بخيلهِ ورَجلهِ وعرباتهِ ويبشّرهُ بفوزه بهم . ويذكر انّ سفنهُ خرجت لمحاربة بلاد أموري مساعدةً لأمير جبيل ريب ادّي فغلبتها . وفي كلامهِ اشارة واضحة الى مناعة بيروت في ذلك الزمان وعلوّ مقامها ورقيّ تجارتها وسعة ثروتها . على انّ كلامهُ يُشعر بسيادة امير جبيل على بيروت

بقيت بيروت تحت حكم فراعنة مصر يحيا أهلها بحياة فينيقية ويرتعون مثلها في ظلّ الدولة المصريّة وهي مصونة شمالًا بجبلها في مضيق نهر الكلب حيث رَسَمَ رعمسيس الثاني سنة ١٣٨٨ ق م صورتهُ مع كتابة هيروغليفيّة تتضمّن ذكر تقدمتهِ لإلههِ «فتاح» . وهناك صورة اخرى تمثّل ايضاً احد فراعنة مصر بازاء الالـه عمّون . ثمّ صورة ثالثة يُرى فيها فرعون آخر منتصباً يقرّب قربانهُ لالـه الشمس «راع» . وكان يصونها جنوباً وجود مدينتين عامرتين واسعتي الثروة والجاه اعني صيداء وصور وكانتا تثيران اكثر منها مطامع الدول الكبرى . فكان خمولها نجاةً لها . ولعلّها اصابت نوعاً من الاستقلال في اواخر الالف الاول قبل المسيح في ايّام حيرام الاول وحيرام الثاني ملكي صور وفي عهد داود وسليمان ملكي اسرائيل

البحث السادس

بيروت في عهد الاشوريين واليونان

جيَّش الاشوريون جيوشهم في القرن التاسع قبل المسيح وزحفوا الى بلاد الحثّيين في جهات الفرات وشمالي سوريّة ثمّ اندفعوا كالسيل الجارف الى بلاد الشام وفينيقية ففتحها ملكهم سلمناصر الثاني (٨٦٠–٨٢٥ ق م) ثمّ غزاها بعدهُ سلمناصر الثالث (٧٨١–٧٧٢) ثمّ اشوردان الثاني (٧٧١–٧٥٤) وتغلات فلاسر الثالث (٧٤٥–٧٢٧) ثمّ سلمناصر الرابع سنة ٧٢٥ ثمّ سنحاريب سنة ٧٠١ ثمّ ملك بابل نبوكدنصّر الثاني (٦٠٦–٥٦٢) . ولم تسلم بيروت من غاراتهم كما تدلّ عليه الصور الخمس والكتابات المطموسة التي نقشها اولئك الغزاة على الصخور المشرفة على نهر الكلب .

ومن المرجّع انّ بيروت عند مرورهم في أرباعها فتحت لهم ابوابها سلماً مفضلةً اداء الجزية مع الامان على فتحها عنوةً

عهد الفرس

وقامت بعد دولتي اشور وبابل دولة ماداي والفرس في اواسط القرن السادس قبل المسيح فبقيت فينيقية خاضعةً لحكمهم وكان الفرس يحسنون الى اهلها المعاملة ويسعون الى تحسين تجارتها وملاحتها فاستعانوا بسفنها لفتح سواحل الشام وآسية الصغرى. وكانت بيروت راقيةً في صناعة السفن وتجهيزها لقرب الغابات والاخشاب الجبليّة من مرفإها فكانت سفنها مع سفن جبيل وصيداء وصور تؤلف اساطيل عظيمة نالت في خدمة ملوك فارس وماداي شهرةً كبيرة

وفي نقود بيروت ما يثبت قوّتها البحريّة فانّها تمثل إله البحر پوسيدون (Posei-don) وهو بعل بَريت واقفاً عند رأس السفينة في احدى يديه صورة الدلفين او احدى بنات البحر بَرُوَه (Beroë) وفي الاخرى الشوكة المثلّثة. ومنها ما تمثلهُ جالساً على مركبةٍ تجرّها اربعة رؤوس من الخيل. فكل ذلك اشارة واضحة لمقدرة بيروت في النقابة البحريّة سواء كانت مجهَّزةً للحرب او مستحضرةً للتجارة البحريّة

ولمّا انتقض حبل الدولة الماديّة اخذت المدن الساحليّة تسعى كلٌّ منها الى الاستقلال وتوسيع مملكتها بقهر جاراتها فكانت تتنازع الحكم على بيروت تارة جبيل وتارةً صيدون. فكان البيروتيّون يجتهدون في استبقاء حرّيتهم او يجارون احوال الزمان الموافقة لصوالحهم. وانّما دين الجبيليين كان مؤثّرا فيهم فشاعت بينهم عبادة البعل وخصوصاً عبادة الإلهة عشترت التي تُرى صورتها على بعض نقودهم القديمة

ولعلّ ما اصابهُ صور وصيداء من العمران والرقيّ في القرنيْن السادس والخامس قبل المسيح كَسَفَ نوعاً رونق مدينة بيروت فقلّما تجد لها ذكرًا في آثار ذلك العهد.
على انّ احد سيّاح اليونان المسمّى سيلاكس (Sylax) اتى الى فينيقية في القرن الرابع قبل المسيح وتجوّل في مدنها الساحليّة واجتاز بيروت فوصفها بهاتين الكلمتين قائلًا: «ان بيروت مدينة ومرفأ» ولم يزد على ذلك شيئاً وبها نستدلّ على أنّ الخراب لم يستولِ على بيروت كما ظنّ بعضهم



هيكل عشترت في بيروت
مكبّرة عن صورة قديمة من نقودها



بعض نقود بيروت في عهد استقلالها قبل المسيح

البحث السابع

بيروت في عهد السلوقيين

سار اسكندر الكبير المقدوني المعروف بذي القرنين الى فتح سوريّة بعد انتصاره على الفرس في معركتي ايسوس في حدود سوريّة وقيليقية (سنة ٣٣٣ قم) وإربل في العراق (سنة ٣٣١) فاخضع سوريّة وعاصمتها دمشق وفينيقية ولم يَقُم في وجهه غير صور الحصينة فملكها عنوة بعد ان حاصرها اربعة اشهر

ولا ريب في خضوع بيروت لسلطة الاسكندر كما يثبت ذلك ما ضُرب فيها من النقود باسم ذلك الفاتح الشهير[١]. ثمّ صارت بعد موته لخلفائه فملكها اوّلًا قائده بطليوس صاحب مصر وانتزعها من يده سلوقوس فدخلت في مملكة السلوقيين ملوك الشام وعاد البطالسة فملكوها ولبعضهم نقود مضروبة فيها كبطلميوس الثالث أورغاتيس الاوّل (٢٤٧–٢٢٢ قم) وكبطلميوس الخامس ابيفانيوس اي الشهير (٢٠٤–١٨١) الى ان صارت نهائيًا في حوزة السلالة السلوقيّة لمّا بسط انطيوخوس الثالث الكبير سلطانهُ على كلّ تخوم فينيقية بعد انتصاره على بطلميوس اوپاتور سنة ١٩٨ قم الى سنة ١٧٥

وفي زمن هؤلاء الملوك السلوقيين خاصّة انتشر في بيروت وفي سائر فينيقية التمدُّن اليوناني وشاعت بين الخاصّة اللغة اليونانيّة وتوفّرت في لبنان وسواحله الآثار الفنيّة المستعارة من اليونان كالكتابات والهياكل والابنية الفخمة والتماثيل والحلي والادوات الصناعية والنقود والمسكوكات التي نشر كثيرًا منها احد اساتذة مكتبنا الطبي سابقًا الدكتور جول روڤيه (Dr J. Rouvier) خصّ لكل مدينة جدولًا منفردًا بينها نبذة حسنة عن مسكوكات بيروت مع صورها وتاريخها اليوناني ٣١٢ ق م

وكذلك شاعت في بيروت وسواها حتى في أيّام حكم الرومان الازياء اليونانيّة والديانة اليونانيّة والنقوش والكتابات اليونانيّة على النواويس حتى اسم بيروت ظهر بزيه اليوناني (BHPYTOC او BHPYTIΩN). ومن كلّ ذلك عدّة آثار وُجدت

١) اطلب كتاب نقود الاسكندر لمولّد MULLER: Numismatique d'Alexandre p. 310

في بيروت وجوارها كما في غيرها من المدن الساحلية . وقد اخذ المتولّون نظارة الآثار يجمعون في متحف المدينة قسماً صالحاً منها . على انّ نقود بيروت الاولى التي ضُربت من السنة ١٩٨ الى ١١١ ق م قد كُتب عليها اسم بيروت باليونانيّة والفينيقيّة ثمّ اكتفوا بعد ذلك بالاسم اليوناني

ويستفاد من ضرب بيروت لنقودها كونها نالت في زمن السلوقيين نوعاً من الاستقلال منحهُ ملوك سوريّة لبعض مدن فينيقية وهو الاستقلال الاداري تحت حمايتهم . وقد عرفت بيروت لملوكها الشرعيين هذه المنّة كما يُروى ذلك في تاريخها ويحقّ لها ان تفتخر بهِ وقد اثبتنا الخبر في كتاب لبنان (ص ٢٣٥) بما معناه :

قام سنة ١٤٦ ق م رجل اسمهُ اسكندر بالا (Alex. Bala) يدّعي الملك لنفسهِ فنشبت بينهُ وبين الملك الشرعي ديمتريوس الثاني نيقاتور حرب عوان دافعت فيها بيروت عن حقوق ملكها بشهامة ومروءة فكان الانتصار حليفاً لديمتريوس . ألا ان تريفون (Tryphon) وزير اسكندر بالا تحزّب بعد موت مولاه لابنهِ انطيوخوس السادس المسمّى ديونيسيوس ليجلسهُ على كرسي المملكة ويملك باسمه . ولعلمهِ بامانة بيروت واهلها لملكهم اغار على مدينتهم ليثأر منهم واخرب ابنيتها وحرقها بالنار سنة ١٤٠ ق م فذهبت ضحيّة وفائها . على انّ تريفون نال جزاءه بعد قليل فغلبهُ انطيوخوس سيداتس اخو ديمتريوس ومات طريداً خاملاً .

وقد ذهب بعض المحدثين الى انّ بيروت بقيت على خرابها نحو مئة سنة واستندوا لاثبات رأيهم الى عبارةٍ وردت في كتاب الجغرافي اليوناني اسطرابون حملوها على غير معناها الصحيح وزعموا لتأييد رأيهم انّ الاثريين لم يكتشفوا اثراً لبيروت في تلك الحقبة . لكنّ الدكتور جول روفيه قد اماط القناع عن صحّة الامر وبيّن ان بيروت لم تبقَ على خرابها زمناً طويلاً ولعلّ تريفون لم يخربها تاماً . فعاد اليها اهلها ورمّموها او جدّدوا بناءها واطلقوا عليها اسم لاوذيقية فينيقية او لاوذيقية التي لكنعان (١ . ويثبت الامر عدّة نقود تمثّل رمز بيروت اي عشترت على رأس سفينة مكتوب عليها

١) راجع مقالة الدكتور روفيه التي عنوانها Une Métropole phénicienne oubliée ومقالة المسيو روسّل (P. Roussel) LAODICÉE, Métropole de Canaan في نشرة المراسلة اليونانيّة (Bulletin de Crrespondance hellénique, 1911, p. 535-446)

هذه الحروف اليونانيّة (ΛΛΦ) مختصر «لاذيقية فينيقية» (Λαοδικεία ἡ ἐν Φοινίκῃ) كما رواها المؤرّخ ابيان (Appien) وفي بعضها باللغة الفينيقيّة (לאדך אש בכנען) وقد راجت هذه النقود بين السنتين ١٧٦ الى ١٢٣ ق م اعني مدّة ٥٣ سنة

ووقف الدكتور روفيه على اثر آخر يثبت رأيهُ في انّ بيروت لم تبقَ خراباً بل كانت عامرة . وذلك وزنٌ قديم لبيروت تاريخهُ سنة ١٢٨ ق م عليهِ شعار المدينة واسم محتسبها المدعو نيقون وكفى بذلك دليلاً على انها كانت في ذلك العهد مدينة تجاريّة . وقد اثبت الدكتور صورة الوزن المذكور مع شرح كتابتهِ في اوّل عدد للمشرق في السنة الاولى ١٨٩٨ (ص ١٧-٢٠)

لكنّ ما قالهُ جناب الدكتور روفيه في ثبات مدينة بيروت لا يصدق لهُ عن رأيٍ آخر حيث يقول انّ الذين عادوا فجدّدوا ابنية بيروت بعد خرابها عدلوا عن موقعها السابق القريب من نهرها الى الجنوب على بُعد نحو ١٠ كيلومترات فبنوها عند الخان الجديد بين وادي الشويفات ونهر الغدير . وقد وجد هو في ذلك المكان آثاراً قديمة من مسكوكات يونانيّة ورومانيّة وخزفيّات ونقوش مختلفة وهو يزعم ان بيروت المستحدثة كانت هناك وعليها يُطلق اسم لاوذيقية كنعان . وهذا الرأي على ما نرجح ليس بصحيح فانّ بيروت بقيت في مكانها . امّا الآثار المذكورة فتدلّ فقط على وجود بلدةٍ هناك وهي احدى المدن الصغيرة التي كانت تتوسّط بين بيروت وصيداء . وقد جاء في كتب جغرافيي اليونان انّ عددها كان بالغاً نحو العشر بقي منها خلدة والدامور

وفي زمن السلوقيين اشتهر في جبيل اوّل مؤرّخ لبلاد فينيقية العلّامة سنكُن يَتُن البيروتيّ الذي بقي من تاريخهِ الضائع عدّة فقرات ذكرها لهُ فيلون المؤرّخ مولود جُبيل ونقلها اوسابيوس القيصري وكفى بيروت بذلك فخراً

ومع تغلّب اللغة اليونانية بين الطبقة الراقية من الشعب لم تزل الفينيقيّة دارجة بين العامّة في بيروت ولبنان ولاسيما في داخليّة البلاد

وفي اوائل القرن الاوّل قبل المسيح ضعفت شوكة السلوقيين باستسلام ملوكها الى اللذّات ورفاهية العيش بعد الحروب الاهليّة المتشبة في ظهرانيها فاضطربت الامور ووقع الخلاف بين مدن السواحل فخاف الاهلون من الفوضى ودعوا ملك

ارمينية دغران لتدبير الامور بينهم فقلّدوه الحكم عليهم ورتعوا مدّة في ظلّ السلام. لولا ان بيروت وجاراتها الشمالية الى الرأس المعروف برأس الشقعة كانت معرّضة لغارات قبيلة الايطوريين الذين استولوا على ذلك الرأس وتحصّنوا فيه و كانوا يتجسّسون السواحل المجاورة من طرابلس الى بيروت فينقضّون منهُ كالسباع الضواري فينهبون ويسلبون ويعودون بالغنائم الى مركزهم آمنين الى أن حاربهم القائد الروماني بومبيوس سنة ٦٣ وشتّت شملهم في البلاد (١

البحث الثامن

رقيّ بيروت في عهد الرومان

دخل الرومان بلاد الشام سنة ٦٤ق م واستولى قائدهم بمبيوس على اقطارها ثمّ ضبط ايضاً سواحلها وجعل فينيقية احد اعمالها مبيدًا لسلطة السلوقيين فيها. وكان ملكهم آنئذٍ انطيوخس الثالث عشر الملقّب بالآسيوي وكان ضعيف الهمّة خائر القوى فلم يجسر ان يقوم في وجه الرومان

وكأنّ الرومان عرفوا ما تستحقّهُ بيروت من الرعاية وانها قابلةٌ للرقي فوجّهوا اليها بنظرهم واخذوا يزينونها بالبنايات الفخمة المتنوعة. وممّا حدا بهم الى ذلك ان الفينيقيين كانوا يعتبرونها مدينةً مقدّسة خصّوها لاكرام البعل المسمّى على اسمها بعل بيروت او بعل بريت . وقد اقاموا لهُ هيكلاً كبيراً على الجبل المشرف على مدينتهم في بيت مري وهو هيكل دير القلعة المكرّس لبعل مرقد الذي كان الفينيقيون يحجّون اليهِ ثم حسّنهُ الرومان وزادوا في ابنيتهِ واعتبروهُ هيكلاً لجوبتر البعلبكي

ولما صار الامر لاوغسطوس قيصر خصّ بيروت بألطاف وهبات لم ينعم بها على غيرها . فولّى عليها القائد مرقس وِسبسيانوس اغريباً بعد ان أزوجه بابنته جوليا. وكان صهره مولعاً بالابنية الفخمة . فلمّا تقلّد ولاية بيروت شملها بسوابغ النعم وجعلها من المدن الاولية الراقية واستدعى اليها فرقتين من الجيوش الرومانية احتلّتا

١) اطلب تسريح الابصار في ما يحتويهِ لبنان من الآثار للاب لامنس (٢ : ٢٩)

فيها وهما الفرقة الخامسة المعروفة بالمقدونيّة (Legio Macedonica) والفرقة الثامنة المنسوبة الى اوغسطوس قيصر (Legio Augusta) فأضحى لها ذلك ميزةً على بقيّة المدن الساحليّة. ثم منحها اوغسطوس امتيازات المستعمرات الرومانيّة وخوّل اهلها حقوق الوطنيّة وكان ذلك السنة ١٥ ق. م. وسمّاها باسم ابنتهِ جوليا (Colonia Julia Augusta Felix Berytus) اي مستعمرة جوليا اوغسطا السعيدة بيروت وضرب باسمها نقودًا بيروتية على هذه الصورة(١. وقد وُجدت كتابات حجريّة على الصورة عينها وكذلك ورد في تاريخ بلينيوس الطبيعي (٢ ما يؤيد الامر فانهُ قال عن بيروت: «انها مجاورة نهر ماغوراس الجاري اليها من لبنان وهي مستعمرة تُدعى باسم جوليا السعيدة»

ولما رأى هيرودس الكبير ملك اليهود محبّةَ اوغسطوس لبيروت سعى هو ايضاً الى تحسينها. وقد اخبر يوسيفوس في تاريخ الحرب اليهوديّة(٣ انّهُ شيّد في بيروت النوادي الواسعة والأروقة الرحبة والهياكل والاسواق الفاخرة والحمّامات والمخازن التجاريّة. فتقاطر الى بيروت كثير من الرومانيين والاجانب فاستوطنوها وزادت بهم حسناً وعمراناً. وفي مجلس بيروت جمع هيرودس محفلاً من الفقهاء والاعيان لمحاكمة ولديه اسكندر وارسطابولس ابني زوجتهِ مريمنة المكابيّة فحكم عليهما بالموت وقتلهما ظلماً (٤

وورث هيرودس اغريبا الاول وهو حفيد هيرودس الكبير حبّ جدهِ لبيروت فزانها بمبانٍ جديدة وصفها يوسيفوس المذكور في تواريخهِ (٥ فقال انّ هذا الملك بالغ في اكرام اهل بيروت فشيّد لهم مسرحاً كان يفوق على مسارح مدن كثيرة بجمالهِ وفخامتهِ وكذلك بنى لهم ميداناً فخماً وملعباً للحيوانات ومعاهد اخرى لم يدّخر في بنائها شيئاً من مالهِ ليبلغها من المحاسن اجلّها. وبعد إنجازها دعا الاهلين الى تدشينها فاقام لذلك مواسم واعياداً بهجة انفق في ترويجها المبالغ الوافرة فتلوا في

١) اطلب مجموعة الكتابات اللاتينية CIL, nos 161 etc
٢) اطلب كتابهُ Plinius : Hist. Nat. V, 17
٣) راجع كتابهُ Fl. Josephus. B.Jud., XXI, 11
٤) اطلب كتاب يوسيفوس العاديات اليهوديّة Idem : Ant. Jud., XV et XVI
٥) في تاريخهِ الحرب اليهوديّة B. J. VII, 5

[illegible] (Legio Macedonica) [illegible] (Legio Augusta) [illegible]

[illegible] (Colonia [illegible] Julia Augusta Felix Berytus) [illegible]

[illegible]

[illegible]

1) [illegible] CIL, n° 161 etc.
2) [illegible] Plinius : Hist. Nat. V, 17
3) [illegible] Fl. Josephus. B.Jud., XXI, 11
4) [illegible] Idem : Ant. Jud., XV et XVI
5) [illegible] B.J. VII, 3

المسرح المشاهد المختلفة وتعدّدت فيه الملاهي وعزفت اصناف الآلات المطربة وتفكيهاً للحضور حكم على ١٤٠٠ من اصحاب الجنايات بان ينقسموا قسمين يقاتل بعضهم بعضاً ففعلوا حتى قتلوا عن بكرة ابيهم . وتمّ ذلك في الميدان الذي اعدّه لتلك المبارزات القبيحة والمظنون انّ موضع هذا المشهد كان على شاطئ البحر بقرب ميناء الحصن المعروف بخان الصاغة حيث يُرى شيء من آثاره باقياً الى اليوم

وفي هذا الميدان نفسه نادى الجنود الرومانيّون بقائدهم فسبسيانوس امبراطورًا بعد وفاة نيرون فبايعهُ امراء الجيش والولاة وسار من هناك الى رومية ليتولى فيها زمام الملك . وفي الميدان عينه احتفل ابنهُ طيطوس بعيد مولد ابيه بعد فتحه لاورشليم بما لا مزيد عليه من الأبَّهة والمجد وامر بقتل جمّ غفير من اسرى اليهود ارضاء وتفكيهاً للشعب

ثم خلف هيرودس اغريبا الاول ابنهُ هيرودس اغريبا الثاني فولّاه الرومان قسماً من سوريّة المجوّفة اي بلاد البقاع التي كانت حاضرتها عَنجر المعروفة سابقاً باسم كَلسيس (Chalcis) مع بلاد البثنيَّة شرقي دمشق . فجرى على مثال والده في تزيين مدينة بيروت بالآثار الجميلة مع انها لم تكن داخلة في تخوم مملكته فنصب فيها التماثيل ونقل اليها صور مشاهير القدماء من انحاء المملكة وشيَّد فيها ٦٤ نادياً جديداً منها بناية المجلس البلدي التي يُستدلّ على شيء من آثارها عند باب الدركة بقرب رجال الاربعين واقام في مسرحها المشاهد السنويّة فصارت الملاعب والاعياد تحاكي في بيروت مواسم رومية ذاتها . وكان يوزّع على البيروتيين بسخاء القمح والزيت حتى اسرف في ذلك ولامهُ اهل دولته لبذله خزائن المملكة في سبيل مدينة خارجة عن حكمه(١

وقد بقي من تلك المباني العجيبة الى يومنا آثار تنبئ بعظم شأنها أخصُّها اعمدة وسَوارٍ ضخمة ورؤوس أكلّة منبثّة في انحاء المدينة او غائصة في بعض سواحل البحر وكثيرًا يستخرجونها بالحفر عند فتح السكك . وكان عددها يبلغ الالوف في القرون السابقة كما يشهد على ذلك السيّاح في رِحلهم

وما لا شكّ فيه انّ بيروت كانت مزدانة في عهد الرومان بأروقة مشيّدة على

١) تاريخ الحرب اليهوديّة B. J., XX, ix, 4

سوارٍ ضخمة كانت تمتدّ على طول المدينة وتبلغ الى نهرها فيتجوّل الناس في ظلّها صيفاً وشتاء . ومنها الآثار السابق ذكرها

وقد بقي من عهد الرومان في بيروت كتابات مختلفة منها مدنيّة يرقى بعضها الى القرون الاولى للنصرانية باليونانيّة واللاتينيّة على بعضها رموز نصرانيّة كالصليب وسَعَف النخل ومنها مدنيّة وادارية كالانصاب الدالّة على مسافات الطريق الرومانيّة (milliaires) وكالآثار لشكر الآلهة لنعمةٍ نالها عَبَدَتُهم او لمديح بعض الرؤساء(١ . ومعظم تلك الآثار لاسيا الأعمدة التي كانوا يزينون بها الهياكل والنوادي العموميّة كانت من الحجر المحبَّب المعروف بالغرانيت كانوا يجلبونهُ من مصر بعناء كبير . وبعضها من الرخام الوطنيّ الذي تُرى الى يومنا مقالعه في الجبل

البحث التاسع

ديانة اهل بيروت القديمة

سبق انّ للفينيقيين مزاعم خرافيَّة تجعل بيروت كاحدى مدنهم المقدَّسة وكان إلههم الكبير البعل خصُّوا عبادتهُ بمسحة وطنيَّة تفرزه عن عبادة المدن الساحليَّة الاخرى فكانوا يعبدونه تحت اسم بعل بريت مرجعةً الى البعل الاعظم كبير آلهة الفينيقيين وانما خصّوه في كل مدينة بصفات لم يُعرف بها في سواها . وان استقصينا البحث عن ذاك المعبود الاصلي ظهر لنا جليًّا انا المَعنيّ بهِ الطبيعة الهيولية بكل قواها فتُبدع وتُفني وتنشئ وتلاشي وتُحيي وتُميت . وكثيرًا ما تخيّلوا انه الشمس الفلكيّة فاقاموا لها مواسم الافراح في الربيع عندما تعود الطبيعة الى حياتها فتحييها بواسطة حرارتها . ولذلك اتخذوا ايضاً النار رمزًا عن الاله الشمس فعظّموها كاحد اركان الطبيعة وقدّموا لها الذبائح والقرابين المختلفة بل لم يأنفوا ان يضحّوا اطفالهم الصغار لاكرامها وارضائها

واذ كان الفينيقيون يعتبرون البعل ذا مبدأين ممتازين احدُهما فاعل والآخر مفعولٌ جعلوا الفاعل ذكرًا والمفعول انثى . وكما ان البعل كان لديهم كالاله العظيم

١) اطلب مجموعة المكتب الشرقي MFO II², 535-540

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

كذلك اعتبروا عشتاروت كالإلهة الكبرى وربما أضافوا اليها إلهاً ثالثاً يدعونهُ طوراً مَلكرت وتارة اشمون واحياناً تموزاو أدونيس

ولما رسخ قدم الرومان في سواحل فينيقية ورأوا فيها معبودات الفينيقيين لم يشاؤوا ان يعترضوهم في عبادتهم وانما ذهبوا الى أنها هي هي معبودات الرومان. ولنا على ذلك دليل محسوس في هيكل دير القلعة الذي كان مزاراً لاهل بيروت ومحجّهم الرسمي ففيهِ كان للفينيقيين معبد كبير ترى اثارهُ باقية حتى اليوم وهناك عبدوا البعل المسمى بعل مَرقُد اشتقاقاً من لفظة فينيقية معناها الرقص واللهو كأنهم كانوا هناك يجتمعون ليستسلموا الى الملاهي والقصف

فلما استولى الرومان على برّ الشام اعتبروا هذا المعبود كالههم الاكبر وهو جوبيتر اي المشتري. والدليل عليهِ كتابات شتى ذُكر فيها المشتري بعل مرقد كأنَّ الاسمين لمسمى واحد

Maximo. Optimo. Jovi. Balmarcodi.

وكذلك اعتبر الرومان الإلهة الفينيقية عشتروت كالهتهم المسمّاة جونون المدعوة عندهم إلهة السماء. وكان الفينيقيون ايضاً يسمون عشتروت ملكة السماء. نصَّ على ذلك سفرُ ارميا النبي (ف ٧ ع ١٨) ومن الادلة على الامر كتابات عديدة لاتينيَّة وُجدت في دير القلعة ورد فيها مصرَّحاً اسم «جونون» وقد اعتبروا في كتابات غيرها عشتروت كالزُّهرة المسمّاة عندهم ڤانوس (Vénus) يؤيد ذلك كتابتان وُجدت الواحدة قرب الشويفات والاخرى في بعلبك ورد فيهما مع جوبيتر اسم ڤانوس بدلاً من جونون. وفضلاً عن ذلك جاء في هاتين الكتابتين اسم الهٍ ثالث بهِ يتمُّ عدد الثالوث البعلبكي الذي كان يُعبد ايضاً في دير القلعة وهو الاله مركور اي عُطارد. وقد اثبت ذلك حضرة الاب لويس جلابرت في مجموعة المكتب الشرقي(١) والاديب الفاضل ميخائيل افندي موسى الوف في دليل بعلبك. اما اسم هذا الالهُ الثالث عند الفينيقيين فلم يُعرف صريحاً حتى الآن (راجع مجلة المشرق لسنتها العاشرة (١٩٠٧ص١٥٨—١٦١)

وكان لكل هذه المعبودات اعياد مختلفة في فصول السنة يحتفل بها الفينيقيون عموماً والجُبيليون والبيروتيون خصوصاً. وقد وصفها الاب هنري لامنس في كتابهِ

(١) اطلب Mélanges de la Fac. Oriantale I, 175

تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

《 النصرانية في بيروت 》على ان هذه الاديان الكاذبة اخذت مع ظهور المسيح في الخمول والتقهقر ولدينا عدة شواهد تثبت كون بيروت نالها عاجلاً شيء من انوار الدين المسيحي منذ اول ظهور النصرانية. ففي تقليد قديم اثبتهُ الراهب الدومنيكاني بُرخارد في القرن الخامس عشر وقبلهُ كاتب الماني يدعى برَيتنباخ (المشرق ١١ [١٩٠٨] : ٨١—٩٨) يلوح منهُ بان السيد المسيح بلغ حتى ثغر بيروت لما بشَّر بالانجيل في تخوم صور وصيداء. كما روى الانجيليان متى (١٥ : ٢١) ومرقس (٧ : ٢٤)

وقد بحث في هذه المسألة الاب ألفرد دوران اليسوعيّ في غضون وصفهِ لرحلة السيد المسيح الى فينيقية والمدن العشر (المشرق ١١ [١٩٠٨] : ٣١) فادَّعى ان السيد المسيح دخل ثغر بيروت واثبت ذلك استناداً الى آية القديس مرقس حيث يقول في انجيلهِ (٧ : ٣١) انَّ يسوع بعد خروجهِ من صور «مرَّ في صيداء وجاء فيما بين المدن العشر الى بحر الجليل» فبيّن انَّهُ لم يرجع القهقرى ليذهب الى المدن العشر لكنهُ ذهب توًّا اليها على طريق مستقيم فقطع لبنان على السكّة الرومانيَّة التي كانت تؤدي من بيروت الى دمشق. وبهِ يزيد رجوح التقليد الراوي لدخول السيد المسيح في بيروت. فتكون عاصمة لبنان نالها شرف خاص ينظمها في جملة الاراضي المقدَّسة

وما لا شبهة فيهِ انَّ الرسل الحواريين في اسفارهم الى انطاكية وعودتهم منها لاسيما بطرس الصفا وبولس الرسول اجتازوا في بيروت غير مرة ولا يقبل العقل انهم اهملوا دعوة اهلها الى النصرانيَّة. وفي المنقولات عن قدماء المؤرّخين انَّ بطرس الهامة عند مرورهِ ببيروت جعل عليها اسقفاً يدعى كوارتوس (Quartus) وهو المذكور في رسالة بولس الى اهل رومية (١٦ : ٢٣). وكانت اسقفية بيروت خاضعة في اوَّل امرها لكرسي صور لكنَّ رقيّها في الحضارة وشهرتها في العلوم دعت ملوك بوزنطية الى الانعام عليها فجعلوها كرسيًّا مطروفوليطيًا وذلك في اواسط القرن الخامس بفضل الملكين ثاودوسيوس الثاني المعروف بالصغير وفالنتنيان وألحقا بها اساقفة جُبيل والبترون وطرابلس وعَرقة وطرسوس. ومما يشهد لرقي النصرانيَّة في بيروت ما ورد في تاريخ ساويرس الانطاكي لزخريا المعروف بالخطيب حيث يروي انَّ في تلك المدينة كانت ستُّ كنائس مسيحيَّة الواحدة منها باسم الرسول يهوذا او تدَّاوس احد تلاميذ

المسيح وزعموا انه استشهد في بيروت. وقيل بل هو يهوذا احد السبعين تلميذاً

وتشيَّدت احدى تلك الكنائس تذكاراً لحادثٍ ذكره صالح بن يحيي في تاريخ بيروت ثم صارت بعدئذٍ في ايدي رهبان الفرنج. قال صالح (ص ١٧) : «ويزعمون ايضاً انهُ كان بكنيسة الفرنج ببيروت قونة خشب فيها صورة مصورة ضربها بعض اليهود بسكِّينٍ فصارت تنزف دماً ثم نقلت هذه الصورة الى القسطنطينيَّة فعمَّروا عليها كنيسة يعظمها الفرنج». يشير صالح الى معجزة جرت على ما زعموا في القرن الخامس وخبرُها مدوَّن في جملة اعمال القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندريَّة. والصواب انَّ كاتبهُ راوٍ اخر سميُّهُ عاش بعده. وفي اعمال المجمع النيقاوي الثاني ورد ذكر هذه الايقونة التي كانت اولًا ببيروت ولها عيد يُحتفل بهِ في كنائس الشرق والغرب ويذكرهُ السنكسار الروماني ويعيّنهُ في ٩ من تشرين الثاني. والمرجح انها لم تكن ايقونة بل صليباً وقد يدَّعي اهل بَلَنسية في اسبانية انَّ ذلك الصليب لا يزال عندهم يكرمونهُ الى ايامنا هذه وقد اثبتنا في مجلَّة المشرق(١١ : ٢٥٤)تفاصيل خبرهِ

ومع هذه الادلَّة على انتشار الدين المسيحي في بيروت نجد للوثنيَّة آثاراً باقية الى القرن السادس للمسيح. وقد سبق لحضرة الاب رينه موترد في المشرق(٢٢[١٩٢٤]: ١٩٥—٢٠٠) وصف هيكل وثني كان مقاماً جنوبيَّ السراية الجديدة على منعطف التلّ الراقي من باب يعقوب الى كنيسة الارمن الغريغوريين. وكان الهيكل المذكور على اسم «الزُّهَرة السيِّدة» اي معبودة الفينيقيين عشترت. وبقربهِ وُجدت كتابات راقية الى اواخر القرن الثاني او اوائل الثالث. وقد نُشرت صورة ذلك الهيكل مكبَّرةً عن بعض نقود بيروت (ص ١٩٥)

وفي ترجمة ساويرس الانطاكي لزخريّا الخطيب افادات عن بقايا بيروت الوثنيَّة في عهده اي في اواسط القرن الخامس وذكر هناك شيئاً من عاداتهم ومآتمهم واشتغالهم بالسحر ونفور الناس عن السَّحرة لخبثهم وسوء تصرُّفهم (١

وكذلك الكتابات المدفنيَّة والتذكاريَّة والآثار الفنيَّة المكتشفة في بيروت وفي جوارها ولاسيما في جهات بيت مري وعند دير القلعة معظمُها لعبدَة اوثان تتراوح بين القرن الثاني الى السادس للميلاد. ولعلَّ المدينة لم تنبذ تماماً العبادة الوثنيَّة قبل الزلازل

١) اطلب هذا الكتاب وترجمتهُ بالافرنسيَّة F. Nau : Vie de Sévère, pp. 49-68

التي كادت تطمس آثارها الى آخر الدهر

على انَّ الوثنيَّة مع ثبات آثارها في بيروت لم تأت فيها على ما يظهر بمعاملات سيئة من مصادرة النصارى واضطهادهم ممَّا نجدهُ في غيرها من المدن الساحليَّة التي كثُر فيها الشهداء وجاءت اخبارهم في صفحات التاريخ لاوسابيوس القيصري وغيرهِ كجبيل وصور وقيسريَّة

اما ما يُخبر عن استشهاد القديس جرجس فيها وانقاذ ابنة ملكها من التنين فهي رواية لا يمكن القطع بها ويدَّعي الكتبة وقوعَها في عدَّة اماكن كنيقوميدية ولُدّ (قرب يافا) وغيرهما. فضلاً عمَّا في قصَّة التنين من الغرابة

البحث العاشر

مدرسة الفقه الروماني في بيروت

وممَّا ألفتَ الى بيروت أنظار العالم الروماني مدرستُها الفقهيَّة التي احرزت لها مجداً اثيلًا يفوق على مجد رومية والقسطنطينيَّة عينها. قيل ان اغسطوس قيصر بعد انتصاره من مرقس انطوان خصمهِ في اكسيوم اجتاز في بلاد الشام واعجبهُ موقع بيروت فأنعم عليها بفتح هذه المدرسة الفقهيَّة. وليس لنا على ذلك برهان قاطع. والمرجَّح ان هذه المدرسة أُنشئت في اواخر القرن الثاني للمسيح لمَّا صارت الدولة الرومانية في عُهدة سلالةٍ تُعرف بالسوريَّة وكان اول ملوكها سبتيموس ساويرس (١٩٣—٢١١م)

وما لا شبهة فيهِ انَّ مدرسة بيروت الفقهيَّة كانت عامرةً في اوائل القرن الثالث كما روى الامرَ احد مشاهير المتخرّجين فيها القديس غريغوريوس العجائبي في اواسط القرن الثالث. وكذلك شهد على وجودها احد الجغرافيين اليونان في تاريخ سنة ٢٣٩ للمسيح فقال: «ان بيروت جامعة لتعاليم كل الشرائع الرومانية (١»

وقد انشأ الرومان مدارس غيرها في رومية والاسكندريَّة وفي قيصرية فلسطين وفي اثينة ثم (في القرن الرابع) في حاضرة القسطنطينيَّة وانما بيروت امتازت بعدة

١) اطلب Geogr. Minores. II, 517, : « Berytus... auditoria legum habens, per quam omnia Romanorum judicia stare videntur.»

[illegible]

(1) Cassiod., Miscell. II, 517 : « Berytus... auditoria legum habens, per quam omnis Romanorum judicia stare videntur »

[illegible]

(1) P. Nau : Vie de Sévère, pp. [illegible]

قصيرة بل برزت وفاقت على تلك المدارس حتى مدرستي رومية والقسطنطينية

ولعلَّ بعض فقهاء السوريين الذين امتازوا في المئة الثانية والمئة الثالثة للمسيح هم الذين استوقفوا انظار معاصريهم على بيروت وما ازدانت بهِ من المفاخر. منهم پاپينيان (Papinien) الفقيه الشهير الفينيقي الاصل وأولپيان (Ulpien) الصوري ويوليوس پولس (J. Paulus) الحمصي. فهؤلاء قد بلغوا ذروة المجد بعظم فضلهم وسعة مداركهم تشهد لهم بقايا عديدة من مآثرهم صبرت على آفات الدهر. وكان ديوقلسيانوس الملك اعفى دارسي الفقه في بيروت من الضرائب العمومية تنشيطاً لهم فراجت فيها سوق الآداب ايّ رواج

وممَّن اطنبوا في وصف مدرسة بيروت الفقهية وأثنوا عليها جميلاً كاتبٌ لاتيني وضع في اواسط القرن الرابع تأليفاً وصف فيهِ خواصّ البلدان عنوانهُ معرض العالم كلّهِ (Expositio totius mundi) فلما اراد تعريف بيروت (قال: «انها المدينة الوافية الكمال موقعاً وحضارة». ومن جهة الآداب العلمية ذكر ان فيها مدارس لدرس الحقوق حسب الدستور الروماني واليها يتوارد الطلبة افواجاً من كل صقع ومنها يخرج المحامون القانونيون لمحاكم العالم كلهِ». وقد دعاها الملك يوستنيان في دستوره القانوني: «امّ العلوم وظلّ الشرائع». وقال يوحنا اناطوليوس: «انها كرسي الآداب والنعم». ولقّبها القديس غريغوريوس العجائبي «بالمدرسة الرومانية المحضة ومركز شرائع رومية الثابت». وقال الشاعر نونّس: «انها موطن الحقوق ومدينة الفقهاء ومُرضعة الحياة باللين والتؤدة»

وقد ابقى لنا التاريخ اسماء بعض معلّميها وهم كيرلُس وديوستان ودُمنينوس واودكسيوس ولاونطيوس. ثم اشتهر منهم اناطوليوس ودوروتاوس. وألّف كيرلُس كتاباً مدرسيًّا يُعرف بالتحديدات الفقهية وهو من التآليف المُمتعة

ولما جلس الملك يوستنيان على منصّة الملك في القسطنطينية اراد تهذيب الشرائع الرومانية وتنظيمها وحصر ابوابها فانتدب نخبة فقهاء ذلك العصر ليقوموا بهذا العمل الجليل واستدعى من جملتهم ثلاثة اساتذة من مدرسة بيروت فساعدوهُ في عملهِ مساعدة هامّة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروتاوس فأنجزوا في سنين قليلة تلك المهمّة المعتبرة كطُرفة ذلك العهد وأبرزوا الدستور اليوستنياني في كل اقسامهِ

وفروعهِ فأخرجوهُ في كتب معلومة عوّلوا عليها في درس الفقه مذ ذاك الحين. واحد اقسام ذلك الدستور المعروف بالمنظم (Digesta) قام بهِ اودكسيوس البيروتي وحدهُ. فعُدَّ عمل يوستنيان من اخصّ نِعَم دولتهِ واضحى كاساس الدروس الفقهية في كل الدول التي جاءت بعده وكركن الشرائع المستحدثة. وفضل بيروت ظاهر في هذا المشروع العظيم

ثم رأى يوستنيان ان يصلح المكاتب الفقهية فألغى منها مدارس قيصرية واثينة والاسكندرية ولم يُبقِ منها الّا ثلثاً وهي رومية والقسطنطينية وبيروت. وكان الملك يختار لها معلّميها ويُجري عليهم الجرايات. وكان لبيروت خمسة اساتذة على عدد السنين الخمس اللازمة لإحراز الدروس الفقهية. لكل سنةٍ استاذ. فيخرج التلامذة بعد ان ينالوا الشهادة من اساتذتهم مستعدّين لكلّ الامور الشرعية متقنين لحقائقها ودقائقها اتمّ الاتقان

وان سأل السائل كيف كانت معيشة الطلبة المتقاطرين الى بيروت من انحاء الدولة أجبنا انهم كانوا أحراراً يتّفقون في الغالب مع الاهلين فيسكنون في بيوتهم ويبيتون عندهم ليلاً ثم يتردّدون الى المدارس في ساعات التعليم. ولا يخفى ان تزاحم الشبان المطلَقي الحرية في حركاتهم وسكناتهم كثيراً ما يقودهم الى ردغات المأثم حتى ولو كانوا من اهل الصلاح فما ظنّك بهم ان كانوا مائلين الى الاهواء الباطلة يسعون الى إغواء رفقتهم في حمأة الفساد ولاسيما في عهد الوثنية؟ فانّ الكتبة المعاصرين كاوسابيوس القيصري وغريغوريوس العجائبي يدعون بيروت «مصيدة النفوس البارّة» لكثرة ما فيها من دواعي الفجور فان هواءها الطيّب وحدائقها وحمّاماتها ومقاصفها وملاعبها كانت مَدعاة الى اللهو وارتكاب المحرّمات. وقد شبّهها غريغوريوس العجائبي بساحرة تفتن عقول الاحداث وتهوي بهم الى قعر الفساد

ومما كان يزيد مدينة بيروت عثرةً لذوي الصلاح ما أُقيم فيها من هياكل الاصنام التي تعظّم الشهوات البشرية وتؤلّه المنكرات. فكان الوثنيون يجاهرون بعبادة عشتروت إلهة الزنى وباخوس إله الخمر والقصف وكان يخدمُ هياكلهما سَدَنةٌ يتاجرون بالعهارة حتى ان الشاعر اليوناني نونّس نعتَ بيروت في اواخر القرن الرابع ببلاط عشتروت ومقام اللذّات البهيمية وهيكل المرح والبطر

[illegible] (Digesta) [illegible]

[illegible]

[illegible] (Ulpien) [illegible] (Papinien) [illegible] (J. Paulus) [illegible]

[illegible] (Expositio totius mundi) [illegible]

[illegible]

ثم افاض في وصف حدائق بيروت وغاباتها الصنوبريّة وما يُشرف عليها من الرُّبى الزاهية والمشارف المزدانة بالنوادي والابنية الفخيمة منها هيكل جوبيتر البعلبكي في بيت مري الذي كان يتوارد اليهِ الزوّار من انحاء فينيقية . وكانت كل هذه الاماكن مجلبة للتنعّم ورفاهية العيش والخلاعة تجذب اليها قلوب الشبيبة جذب المغاطيس للحديد

ولما تغلّبت النصرانيّة على المدينة بعد قسطنطين الكبير وثاودوسيوس لم تزل العثرات العديدة في سبيل الشبّان ولم ينجُ منها الّا القليلون كأمفيان الشهيد الذي كان قدوة أترابهِ ومثالهم الحيّ . ولنا على معيشة الدارسين في بيروت شاهدٌ عياني كان في القرن الخامس وهو زكريّا الاستاذ الذي كتب بالسريانيّة سيرة ساويرس الانطاكي ووصف سلوكهُ في بيروت اذ كان يدرس فيها الحقوق (سنة ٤٨٧—٤٨٨) وقابل بين رزانتهِ ونزق رفقتهِ الشبان كما روى ذلك المرحوم بولس هوفلين (Mr Paul Huvelin) كبير اساتذة مكتب ليون في مجلة المشرق في سنتها السادسة عشرة (ص ٩٣٠—٩٣١) . وهناك لمحة عن تنظيم المدارس ودرجاتها وترتيب صفوفها ومعلّميها وخُصَّ منهم بالذكر لاونطيوس بن اندوكسيوس وغير ذلك من التفاصيل التي تمثل لنا بكل دقة حياة المستفقهين في اواخر القرن الخامس للمسيح

ومما افادنا كتبة ذلك العهد ان مدارس بيروت ما كانت مقتصرة على علم الفقه بل كان الاحداث يعكفون ايضاً فيها على العلوم الادبية بفروعها كاللغة والادب والفلسفة . الّا ان شهرتها في الفقه كان يُضرَب بها المثل في العالم الروماني باجمعهِ . وبقيت مدارس بيروت زاهية عامرة الى اواسط القرن السادس حيث نُكبت بالزلازل وكوارث الدهر كما سترى

البحث الحادي عشر

تجارة بيروت وصناعتها في ايام الرومان

غنيّ عن البيان ان بيروت من اصلح مدن فينيقية للمعاملات التجاريّة لحسن موقعها على شاطئ البحر متوسّطة بين فلسطين وقيليقية مجاورة لسوريّة المجوّفة اي البقاع وللاقطار الحلبيّة وهي فُرضة دمشق وبازاء قبرس ليست ببعيدة عن وادي النيل . فقد ادرك القدماء ما لهذه الخواص من المنافع الاقتصاديّة الجمّة . على انها لم

تبلغ قطّ من رواج تجارتها ما افادتهُ في عهد الرومان

فلمّا بسطت رومية ظلّ رعايتها على بيروت جعل عمّالها ينشّطون اهلها في تعزيز متاجراتهم . وقرّبوا لهم الامر بجلب المياه الحليّة وفتح الطرق بينها وبين البلاد المحيطة بها . وبقايا تلك المشروعات لا تزال ظاهرة حتى يومنا على ساحل البحر وفي جهات لبنان والبقاع . فذلك ما جعل بيروت في مقدّمة مدن فينيقية كما صرّح بالامر في القرن الرابع أميان مرشلّان في تاريخهِ (١ حيث يقول : « ان اجلّ مدن فينيقية بيروت وصور وصيدا » وبعد اطرائهِ لمدارس بيروت وسبقتها في تعليم الفقه يردف قائلًا : « انّ الترفُّه ورغد العيش ومجالي الأبّهة كل ذلك غالبٌ على بيروت »

واخبر صاحب وصف البلدان المُغفَل (Anonymi Orbis descriptio, 25) انّ منسوجات بيروت من الصوف والكتّان كانت مشهورة في كلّ الاصقاع . وفي ايام ملوك الروم وخصوصاً في عهد يوستنيان صارت بيروت مركزاً لتجارة الحرير والاشغال الحريريّة (٢ ولم يعارض بيروت في ذلك سوى مدينة صور

وقد ذُكر في الكتابات اليونانيّة (Waddington, n° 1854) احدُ البيروتيين المدعو صموئيل كبائع الحرير (sericarius) . ووُصف غيرهم بالصبّاغين ما يدلّ على وجود الصباغات في بيروت لصبغ الارجوان والاقمشة

وكانت المعاملات التجاريّة في عهد الرومان متواصلة بين سواحل الشام وبلاد ايطالية وغالية فكانت محصولات سوريّة تُعرض في اسواق تلك البلاد وكان للسوريين شركاء يسكنون هناك لترويج بضائعهم وعُملاء ينقلون محصولات الغرب الى انحاء الشام . وقد وقف الاثريّون على عدّة كتابات جاء فيها اسماء تجّار من فينيقية وسوريّة كانوا يقطنون بلاد الغرب . فمن ذلك كتابة لاتينيّة وجدت في مدينة بزولة (CIL, X, 1634 Puteoli, Pouzzoles) ورد فيها ذكر تجّار بيروت الساكنين هناك Berytenses qui Puteolis consistunt وذلك في عهد القيصر ترايانوس في اوائل القرن الثاني للمسيح

١) اطلب Amm. Marcellin., *Hist.*, *XIV*, n° 8

٢) اخبر بذلك المؤرخ بروكوبيوس في كتابهِ المعروف بالتاريخ السرّي (Historia Arcana, 25)

[illegible]

[illegible] (Anonymi Orbis descriptio, [illegible]

[illegible] (Waddington, n° 18) [illegible]

[illegible] (senatus) [illegible]

[illegible] (CIL, X, 1634 Puteoli, Pouzzoles) [illegible] Berytenses qui Puteolis consistunt [illegible]

[illegible]

(1) Amm. Marcellin, Hist., XIV, n° 8 [illegible]

(2) [illegible] Histoire [illegible] Annales 31)

وممّا يشهد على اتّساع المتجر في بيروت العدد الوافر من اليهود الذين كانوا يتعاطون فيها التجارة في عهد الرومان تدلّ على ذلك كتابات مدفنيّة وجدت في المدينة لاهل مذهبهم

وكذلك اشتهرت بيروت بخصبها ووفرة غلّات أرباضها وقد اتّسع في ذلك الشاعر نونُّس في كتاب الديونيسيّات (١ فوصفها باوصاف قلَّ ما وُصفت بها مدينة غيرها وهو يدعوها «برُويَه» وينعتها «بملكة الحياة وظئر المدن وفخر الملوك ومَعهد إلهة العدل وسُور الفقهاء ومركز السرور ونجم لبنان» ويطري كرومها التي تكسو رُباها بثوب سندسيّ يروق للعين وتُعصر من ثمارها «خمرة الإله بخوس» . وقد امتدح ايضاً بلينوس الطبيعيّ (٢ عنبها اللذيذ وخمرتها الطيّبة (Berytia vina) . وكذلك وصف الشاعر العربيّ خمر بيروت وقراها فقال :

وسَبيئةٍ من قرى بيروتَ صافيةٍ عذراءَ قد سُبيت من ارض بَيْسانِ

ولا رَيب في اغتناء بيروت بزيتها مع ما يُرى من كثرة اشجار زيتونها وآثار معاصرها القديمة

وقد ساعد على زهوها ونموّ غلّاتها ووفرة بقولها وبُسوق نخلها واشجارها ابتناء الرومان لتلك القنيّ المحكمة التي كانت تأتي بالمياه اللبنانيّة الصافية الى بيروت بعضها من نهرها ماغوراس والبعض الآخر من نبع العرعار فوق قرية بعبدات من مقاطعة المتن الشمالي . ولم تزل آثار تلك القنيّ باقية الى عهدنا . فعند نبع العرعار قبو وبقايا حَوض وقنيّ تشهد على ذلك . ثمّ يمكن الاستدلال على القنيّ المذكورة في انحاء ممرّها في الرُوَيسة قريباً من بعبدات . وفي القشي شرقيها قريباً من طريق العجلات ثم في الرصيف شرقيّ قرية برمّانا ثمّ بينها وبين بيت مري في المكان المعروف بعصرة الحريق حتى تبلغ دير القلعة . وفي تاريخ بيروت لصالح بن يحيي (ص ١١–١٢) ما يؤيد ذلك فانهُ يقول عن تلك القناة انها «من العمائر العجيبة وكانت تجري من مكان يسمّى العَرْعار من ارض كسروان قيد اثني عشر ميلاً» . فبتلك المياه خصبت تربة بيروت حتى توفرت محصولاتها ونُقلت الى البلاد الاجنبيّة

١) اطلب Nonnus : *Dionys., XLI, éd. Didot, p. 343-344*

٢) في تاريخه الطبيعي Pline, HN, V, c. 17

وممّا خُصّت بهِ بيروت منذ الزمن القديم غاباتُها . فمنها ما كان يزين جبالها المشرفة عليها كالارز والشربين . ومنها ما كان يظلّل حدائقها المحيطة بها كالنَّخل وكان يكثر فيها وكذلك السّرو الذي زعموا انّ من اسمهِ بالعبرانيّة اشتقّت بيروت اسمَها كما سبق . ومثلهُ الصنوبر الذي اتّسعت غاباتهُ حول بيروت وورد ذكرهُ في قدماء الكتبة . فانّ الشاعر نونُّس مثلاً قد أطنب في القرن الرابع للمسيح في مدح غابات صنوبر بيروت في قصيدتهِ الثانية والاربعين من ديوانهِ المعروف بالديونيسي (Dio-nysiaca, XLI) . وبقيت تلك الغابات الى ايّام العرب فذكرها الشريف الادريسي في جغرافيّتهِ المعنونة بنزهة المشتاق في اخبار الآفاق وذلك في القرن السادس للهجرة والثاني عشر للمسيح حيث قال : « لبيروت غيضةٌ من اشجار الصنوبر سعتُها اثنا عشر ميلاً في التكسير تتّصل الى نحو لبنان»

وممّا رُوي في تاريخ غليلموس الصوري انّ الصليبيّين لمّا حاولوا محاصرة بيروت عمدوا الى اخشاب غاباتها فجهّزوا منها المجانيق والادوات الحربية . وقد ورد ايضاً في تاريخ بيروت لصالح بن يحيي (ص ٥١–٥٢) ما صنع الامير الكبير يَلْبُغا العُمَري في محرّم من السنة ٧٦٧ (١٣٦٥م) اذ «أمرَ سيف الدين بيدَمُر الخوارزمي بالتوجه الى بيروت ليعمّر من غاباتها مراكب كثيرة حمّالاتٍ وشوانيَ لفتح قبرس» قال : «فحضر الى بيروت وأحضر صنّاعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمّاً غفيراً وقيل انهُ لم يُعهَد قطّ عمارةٌ مثلها عظماً وسرعةً وكثرةَ صنّاع وقوّةَ عزم . وعمّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبةً وعُرفت بهِ الى الآن وكانت المراكب تُعمَل بها على بُعدٍ من البحر» ثمّ ذكر ما صُرف عليها من المال الكثير الذي ذهب سدًى لوفاة الامير يَلبغا

ولعلّ كثرة ما قُطع من تلك الاشجار لابتناء السفن كاد يُتلفها . فانّ احد السيّاح الالمانيين ذكر سنة ١٤١١ انّ سعة غابات بيروت ميلانِ فقط . ومن المعلوم انّ هذه الغابات تُنسب حتى يومنا الى الامير فخر الدين وانّما هو اهتمّ فقط بتجديدها وتوسيعها . وما يُرى منها الى اليوم بقايا تلك الغابات الشهيرة وهي كافية لتبيّن لنا إعجاب القدماء بمحاسنها ومنافعها حتى انّ الشاعر لامرتين الفرنسوي في اواسط القرن الماضي اشاد في ذكرها بل بالغ في وصفها حتى نُسب الى الغلوّ والتطرّف

وكذلك كان البيروتيّون يتاجرون بالمعادن التي كانوا يستخرجونها من لبنان

[illegible] (Dionysiaca, XLII) [illegible]

[illegible]

[illegible] (Berytin vitae) [illegible]

[illegible]

Nonnos : Dionys., XLI, [illegible] p. [illegible]

Pline, HN, V, [illegible] 17 [illegible]

اخصُّها النحاس والحديد . أمّا النحاس الذي تكرَّر ذكرهُ كاحد معادن لبنان في الكتابات المصريَّة والاشوريَّة فانهُ قد أصبح اليوم اثرًا بعد عين إمّا لنفوده من لبنان وامّا لمتاجرة الفينيقيين بهِ قديمًا ثم عُدولهم عن جَلبهِ . امّا الحديد فشاع مدَّة اجيالٍ طويلة استخراجهُ من مناجم بيروت حتى انَّ قدماء المصريّين دعوا الحديد باسم «با ان بَرت» اي «معدن بيروت»

ولدينا في كتب جغرافيّي العرب وسيّاحهم عدَّة شواهد تثبت استخراج الحديد من مناجم بيروت . فمن ذلك ما جاء في كتاب المقدسيّ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ص ١٨٤) انَّ «معادن الحديد في جبال بيروت» . وقد ذكرهُ من بعدهِ الشريف الادريسي فقال : «وبمقربة من بيروت جبل فيهِ معدن حديد طيّب جيّد القطع يُستخرج منهُ الكثير ويُحمل الى بلاد الشام» ومثلها ما قالهُ ابن بطوطة في رحلتهِ (١ : ١٣٣ من الطبعة الباريسيّة) : «وسرنا الى مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن . وتُجلَب منها الى الديار المصريَّة الفواكه والحديد» فجمع ابن بطوطة بين مواليد بيروت النباتيَّة ومرافقها المعدنيَّة . ذلك فضلًا عما كانت ترتزق بهِ بصيد الاسماك وتستخرجهُ من الاصداف البحريَّة لصبغ الأرجوان كصور وصيداء

فبكل هذه المحصولات مع حسن موقع المدينة وصفاء جوّها وكثرة خيراتها اوقفت بيروت انظار اوغسطوس قيصر فخوّلها امتياز المستعمرات ونعتها بالسعيدة ودعاها باسم ابنتهِ جوليا مشعرًا باسم عمّهِ يوليوس قيصر ومضيفًا اليها اسمهُ الشخصيّ اوغسطوس كما سبق . وعلى هذه الصورة ضربت النقود البيروتيّة الى اواخر القرن الثالث . وكثيرًا ما كانوا يصوّرون على تلك النقود جنديًّا يفلح الارض لانَّ اوغسطوس قيصر كان اقطع كثيرًا من املاكها جنودهُ الذين نصروهُ في واقعة اكسيوم

وقد بيَّن حضرة الاب لامنس في كتابهِ تسريح الأبصار (١ : ٢٧) ما نالتهُ بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانيَّة من الامتيازات الخاصَّة : منها معافاة اهلها عن دفع الجزية . ومنها استقلالها النوعي اذ لم يعُد يحكم عليها ولاة رومانيّون بل اضحت كدولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانيَّة في الشرق تتصرَّف باحكامها

كالعاصمة نفسها . وانَّما كان يُعنى بسياستها حاكمان (duumvrs) اليهما يفوَّض تدبير الامور لهما الحلّ والعقد والامر والنهي كقناصل رومية المختارين لسنةٍ . وكان للمدينة دار ندوة يجلس فيها للبحث عن صوالح العموم مئة من رؤساء الاعشار (décurions) . وكان لبيروت كما لرومية ساحة كبيرة (Forum) يجتمع فيها جمهور الاهلين فيسمعون خطب الرؤساء ويقفون على تقارير المندوبين وكانوا يختارون وحدهم ولاتهم وحكّامهم دون ان يتداخل عمّال رومية في شؤونهم إلّا اذا ثارت بينهم الفتن وافترقت كلمة السكان بالشغب

فبكل هذه الامتيازات الفريدة زادت في سمعة بيروت ووسَّعت نطاق معاملاتها ولعلَّ معظم الآثار التي تُرى الى اليوم في جهاتها او تُستخرج بالحفريّات متَّصلة بالعهد الروماني والبوزنطي لاسيما النواويس الحجريَّة او الرصاصيّة التي وُجدت في شرقيّ المدينة وغربيّها على بعضها كتابات يونانيَّة ولاتينيَّة

وبعض هذه الآثار من بقايا قصور او عمائر لذوي الثروة واليها اشار صالح في تاريخهِ حيث يقول (ص ١٣—١٦) :

«وممَّا يُستدلّ على كبر بيروت وسَعَتها ما يجد الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العمائر القديمة ما طولهُ قريب من ميلَين اوَّلهُ مكان يسمّى بلَيندة وذو قبة غربي البلد الى مكان حقل القشا مقارب النهر شرقيّ البلد . فلمَّا عمّروا السور اختصروهُ على القدر الذي هو عليهِ اليوم»

ومن المقرَّر انَّ كثبان الرمل التي تمتدُّ اليوم غربيّ بيروت وجنوبها لم تكن في عهد الرومان قد سجَّت بكفنها تلك الجهات لِما اعتادهُ الرومان من تشجير البلاد ونَصب الغابات التي هي اصلح السدود في وجه الرمال البحريَّة فضلًا عن منافعها الصحيّة والاقتصاديَّة . وكانت بيروت تزدهي ببعض الجُزُر الصغيرة المجاورة لها والتي يشير اليها في القرن الرابع نونُّس الشاعر (Dionys., XLI. fi5) حتى وصف بيروت بالمدينة المزدانة بالجزر (εὔνησος) وقد ثبتت بعض هذه الجزائر الى القرون الوسطى اذ نسفتها الزلازل[1]

١) اطلب تسريح الابصار (٢ : ١٨)

فهذا بعض ما اوقفتنا عليه الآثار عن احوال بيروت وتجارتها وصناعتها في عهد الرومان وملوك بوزنطية الروم قبل حدوث تلك الزلازل التي كادت تقضي على بيروت في القرن السادس

البحث الثاني عشر

مشاهير بيروت قبل العرب

لم تخلُ بيروت من مشاهير عظام شرّفوها بمآثرهم في الزمن الذي سبق عهد الاسلام منهم وثنيّون ومنهم مسيحيون .

فالوثنيّون منهم اشتهروا في أيام الدولة الرومانيّة ألا « سَنكُن يَتُن » المؤرخ الفينيقي الذي عاش قبل المسيح بزمن طويل حتى زعم البعض انهُ عاصَرَ موسى النبي . قالوا ذلك حدساً وانْ هو الّا وهمٌ لا سند لهُ والعلماء يرجحون اليوم انهُ عاش في القرن الرابع قبل المسيح . ولد في بيروت وصار كاهناً للاوثان وانما كان عارفاً بامور بلادهِ فدوَّن تقاليد قومهِ واخبار وطنهِ فاخذتها يدُ الضياع إلّا ما نجا منها منقولاً في كتب الفيلسوف الجبيلي فيلون وفي تاريخ اوسابيوس القيصري لاسيما ممّا رواهُ من اساطير القدماء وخرافاتهم

ولعلَّ فينيقيّاً آخر من بيروت اسمهُ « مناسياس » او منسّى (Mnaseas) تقدَّم عهد السيد المسيح روى لهُ القدماء كتاباً في الخطابة وفي المفردات اليونانيّة .

وامّا بعد المسيح فان بيروت قد تشرَّفت بعددٍ من العلماء منهم فلاسفة ومنهم لغويّون وبعضهم فقهاء واطباء .

فمن الفلاسفة اشتهر في القرن الاوَّل للميلاد « اغناطيوس تسّالر » (Egnatius Celer) من الفلاسفة الرواقيين كان مولدهُ في بيروت ثمَّ رحل الى رومية في عهد نيرون واصاب فيها بعض السمعة بخطبهِ في دواوين المحاماة

وفي اواخر ذلك القرن واوائل القرن الثاني للمسيح في عهد القيصرين ترايانوس وادريان عُرف الفيلسوف البيروتي « هرمپوس » (Hermippus) . كان هذا تلميذاً

للفيلسوف فيلون الجبيلي وانحاز مثلهُ الى مذهب افلاطون . ألَّف باليونانيّة كتباً في التنجيم وتفسير الاحلام

٥ وكان قريباً من زمانهِ احد مواطنيهِ الفيلسوف « ثاودورس » المولد في بيروت في اواسط القرن الثاني . تشيَّع مثلهُ لمذهب افلاطون في الفلسفة

٦ وفضلَهُ في الشهرة معاصرهُ « كلڤيسيوس تورس » (Calvisius Taurus) ولد ونشأ في بيروت ثم تخرَّج في رومية واعتنق مذهب افلاطون ومن تآليفهِ كتاب الفرق بين تعاليم ارسطو وافلاطون . وشرح بعض مصنَّفات افلاطون و كتب في الاجساد الهيوليَّة والارواح المجرَّدة

٧ ومن مشاهير الكتبة في القرن السادس احد علماء الطبيعة المسمَّى « اناطوليوس بندانوس » (Anatolius Bindanus) كان بيروتيًّا وألَّف كتاباً في تاريخ الطبيعة في عدَّة مجلَّدات

امَّا اللغويون فاصاب بين الرومان سمعةً واسعة الاستاذ البيروتي « مرقس
٨ ڤاليريوس پروبوس » (M. Val. Probus) من اهل القرن الاول للميلاد فبرز في المعارف اللغويَّة والفنون الادبيَّة وقد اطراهُ المؤرخ اللاتيني سويتونيوس في كتابهِ عن اللغويين الرومانيين . وقد تفرَّغ پروبوس لتنقيح كتب اللغة وشرح قصائد الشعراء اللاتينيّين كڤرجيليوس وهوراسيوس وصنَّف التآليف الممتعة في الفصاحة والبيان والخطابة واصول اللغة اللاتينيَّة وخاض في ابحاثٍ اخرى ادبيَّة شاع بها فضلهُ واحرز لوطنهِ بيروت ذكرًا طيِّباً

٩ وفي زمنهِ كان اللغوي « لوپركوس » (Lupercus) البيروتي المولد اخذ عنهُ الرومانيّون في عهد كلوديوس قيصر في اواسط القرن الاوَّل فألَّف كتباً عديدة في اللغة اليونانيَّة و كتب ايضاً عن مصر ووصف بعض مدنها

١٠ امَّا الاطبَّاء فلم يُعرف منهم سوى اسطراطون (Strato) البيروتيّ ألَّف كتباً في معالجة الادواء امتدحها جالينوس في كتبهِ

وقد مرَّ ذكر الفقهاء الذين اشتهروا في بيروت بين اساتذة مدرستها الفقهيَّة الشهيرة اذ كانت في عهدة الرومان الوثنيين وكان هؤلاء يعلّمون فيها ولم يكن اصلهم منها . وسنذكر قريباً الذين اشتهروا منهم في العهد المسيحي

[illegible]

[illegible]

[illegible] (Mnaseas) [illegible]

[illegible]

[illegible] (Ignatius) [illegible]

[illegible] (Celer) [illegible]

[illegible] (Hermippus) [illegible]

[illegible]

٥ [illegible]

٦ [illegible] (Calvisius Taurus) [illegible]

٧ [illegible] (Anatolius Bindanus) [illegible]

٨ [illegible] (M. Val. Probus) [illegible]

٩ [illegible] (Lupercus) [illegible]

١٠ [illegible] (Strato) [illegible]

[illegible]

امّا مشاهير بيروت المسيحيُّون فمعظمهم ممَّن تخرَّجوا في مدارسها وان لم يُعَدُّوا من مواليدها . فمنهم احد كبار اساقفة الكنيسة الشهير بمعجزاته القديس غريغوريوس العجائبي درس في بيروت الفقه الروماني مع اخيه ثاودورس في اواسط القرن الثالث ثم سُقف على مدينة قيصريَّة فردَّ اهلها الى النصرانيَّة

وفي مدرسة بيروت تخرَّج احد شهداء الكنيسة في اواخر القرن المذكور أمفيان او افيان مع اخيه اداسيوس . وُلدا في برغا من اعمال بفيلية في آسية الصغرى ثمَّ قدما بيروت طلباً للعلوم فانصبَّ اداسيوس على علم الفلسفة والآداب وتخصَّص امفيان بدرس الحقوق ومنحهُ الله في تلك المدينة نعمة الايمان واضحى فيها قدوة الدارسين لا يأخذهُ في دينهِ لومة لائم الى ان ختم حياتهُ بالاستشهاد في مدينة قيصريَّة فلسطين . وكان ذهب اليها ليواصل دروسهُ على احد اساطين العلم الاسقف بمفيل فابرز ديوكلسيانوس ومكسيميانوس حكمهما في مناهضة النصرانيَّة فأوقفهُ حاكم المدينة اوربانوس وعرض عليهِ جحود ايمانهِ فأبى كل الاباء . فقُتل شهيداً (١

١ وفي بيروت ايضاً درس في القرن الخامس اخوان آخران اسمها يوحنا واركاديوس نشر الخوري الالماني جورج غراف (G. Graff) قصَّتها العجيبة (في المشرق ١٢ [١٩٠٩] : ٦٩٥–٧٠٦) عن احد مخطوطات المكتبة الفاتيكانيَّة القديمة المكتوب سنة ٨٨٥ م

وقد افادنا المؤرخ زكريَّا الخطيب في ترجمة ساويروس الانطاكي انهُ درس معهُ الحقوق الرومانيَّة في بيروت في اواخر القرن الخامس للمسيح واتانا في تاريخهِ بعدَّة معلومات عن مدرسة بيروت الفقهيَّة واساتذتها وسيرة طلبتها وعن طريقة التعليم في معاهدها ونظامهِ

امّا اساتذة بيروت النصارى الذين اشتهروا بالتعليم في مدرستها الحقوقيَّة

١ فكثيرون منهم في اواسط القرن الخامس «اودكسيوس» لهُ شروح على متن بعض

١ الكتب الفقهية . خلفهُ في التعليم ابنهُ «لاونتيوس» الذي ورد ذكرهُ في تاريخ زكريَّا

١) اطلب تفاصيل اخبار حياتهِ وموتهِ في المشرق (٩ [١٩٠٦] : ٩٨٤ و ١٠٧٩) بقلم الطيب الذكر الاب فردريك بوفيه احد اخوتنا المرسلين والمتوفّى شهيد محبَّتهِ في خدمة الجيوش في الحرب الكونيَّة سنة ١٩١٦

الخطيب السرياني بين اخبار ساويروس الانطاكي سنة ٤٨٧ فعلَّم نحو خمس عشرة سنة ثمَّ رُقّي الى مناصب دولية شريفة كحاكم ديوان الشرق (præfectus prætorii) ورئيس العسكر (magister militum) وخوَّلهُ الامبراطور انستاس رتبة البطارقة (١

١٦ واشتهر في القرن السادس بين اولئك الاساتذة الفقهاء «دوروستينس ودُمْنينوس وكيرلُّس» وقد ألَّف هذا الاخير دليلاً لتعليم الحقوق كان الطلبة يتهافتون عليهِ لحسن نظامهِ ووضوحهِ

١٧ واشهر منهم «اناطوليوس ودوروثاوس» اللذان استدعاهما الامبراطور يوستنيان لاعادة النظر في الشرائع الرومانيَّة وتنقيحها وتنظيمها وتبويبها كما مرَّ فاستحقَّا شكر الملك وكلّ الاساتذة والمتعاطين فنَّ المحاماة

ولم يُذكر في بيروت الى أيام العرب سوى عشرة اساقفة (راجع مقالتنا في اسقفيَّة بيروت (في المشرق ٨ [١٩٠٥] : ١٩٣–١٩٦) اوَّلهم كوَرتوس تلميذ الرسل وعاشرهم ثلاسيوس في القرن السادس واكثرهم شايَعوا لاحدى بدعتي اريوس او اوطيخا اللهمَّ الّا تيموثاوس احد آباء المجمع القسطنطيني الاوَّل (سنة ٣٨١) ويوحنَّا في اواخر القرن الخامس الذي ناصَبَ بعض الاشرار الذين كانوا يتعاطون اعمال السحر في بيروت وهو الذي ساعد الناسك رَبُولا السميساطي في بناء دير في الجبل قريباً من بيروت . كما ذُكر في الميناون اليوناني في اليوم ١٩ من شباط (٢

وفي الميناون المذكور في اليوم التاسع من تشرين الثاني ذكر القديسة «مطرونا» التي شيَّدت مع ابنتها تاودوطا في حمص اوَّلًا ثم في بيروت ديرًا للراهبات تقدَّست فيها عدَّة عذارى

فهؤلاء بعض الذين وجدنا لهم آثارًا في بيروت ولا جرم انَّ كثيرين غيرهم شرَّفوها باعمالهم ففُقدت اخبارهم مع ما اخنى عليهِ الدهر واضاعهُ

١) اطلب ترجمة ساويروس في مجلة الشرق المسيحي (ROG, IV, 343; 543 et V, 71 ; 293) ثمَّ مقالة المسيو كولينه (M. P. Collinet) عن لاونتيوس المذكور C^{tes} R^{us} de l'Acad. des Insc. et Belles Lettres, 1921, p. 77-84

٢) اطلب اعمال القديسين للبولنديين (Acta Sanctorum, 19 Février, p. 136-137)

البحث الثالث عشر

خمول بيروت بنكبات الزلازل

أنَّ المقام الرفيع الذي بلغتهُ بيروت في عهد الرومان بترقّيها المدنيّ والادبيّ جعلها في مقدمة مدن الشرق تمشي الثنيان مع انطاكية والاسكندريَّة. وكان بصرُها يطمح الى ما فوق ذلك لولا ما دهمها من النكبات في اواسط القرن السادس للميلاد نعني بذلك الزلازل الهائلة التي حلّت بها في تلك المدَّة ولاسيما زلزال سنة ٥٥١ م الـذي أهبطها الى الدقعاء وشوَّه كل محاسنها فأضحت اشبه بتلال من الردم والخراب (١

على أنَّ ذلك الزلزال لم يَخلُ من سوابق انذرت غير مرَّة البيروتيين بالخطر الذي يتهدَّدهم ليكونوا منهُ على حذر

واوَّل زلزال ورد فيهِ ذكر بيروت رواهُ المؤرخ اليوناني تاوفان في السنة ٥٨٣٤ للعالم وقال هناك أنَّها توافق السنة ٣٣٤ للميلاد (٢ ثمَّ وصف الزلزال بما تعريبهُ:

«وفي اثناء ذلك حدث في بيروت من مدن فينيقية زلزلة هائلة خرب بها قسم كبير من المدينة فذُعر بسببها كثيرون من المشركين الذين هناك وطلبوا الدخول في الكنيسة واعدين بحفظ رسوم الدين النصراني. لكنهم بعد فروغ الخطر عدلوا الى مذاهب دينية مختلطة تقلَّدوا فيها رتب الكنيسة»

وما لبثت بيروت فاصلحت شؤونها ورمَّمت ابنيتها وعادت الى ما كانت عليهِ من العزّ والبهاء

وذكر مؤرخو اليونان زلزالين آخرين في سنتي ٤٩٤و٥٠٢ دمَّرا سواحل الشام وقوَّضا مدينتي صور وصيداء. إلّا ان بيروت لم ينلها من تلك الآفة الّا ضررٌ قليل اخصُّهُ سقوط كنيس اليهود فيها في ٢٢ آب من السنة ٥٠٢ على ما رواهُ المؤرّخان زوناراس ومالالا

وكأنَّ تلك الكوارث كانت كمقدّمات لشرور اعظم توالت في فينيقية عموماً

١) اطلب في المشرق ٢ [١٨٩٩]: ٩٧١) مقالة حضرة الاب لامنس «الزلازل في بيروت»

٢) هذا الحساب على بناء انَّ وقوع سنة الميلاد في ٥٨٠٠ العالم والتاريخ القسطنطيني يجعلهُ عادةً في السنة ٥٨٠٨

وبيروت خصوصاً في اواسط القرن السادس . وكان اوفرها تأثيراً واوسعها خراباً الزلزال الذي حدث سنة ٥٥١ للمسيح وقد فصَّل المؤرّخون خبر تلك الجائحة الهائلة التي عمَّت مدن ساحل الشام ودمَّرت كلّ انحاء بيروت وابنيتها. قيل انَّ البحر جزرَ الى مسافة ميل من الشاطئ ثمَّ ارتدَّت امواجهُ كطود شاهق واغرقت كل السفن ثمَّ انقضَّت على البلد فلم يسلم منها بناء. قال ميخائيل الكبير في تاريخهِ (٢: ٣١١):

«لمّا حدث ذلك الزلزال في بيروت ومدن فينيقية اندحرت المياه بإذن الله الى مسافة ميلين فانكشفت اعماق البحر وظهرت فيهِ سُفن مشحونة بالبضائع ومال كثير. فحمل الطمع الاهلين ولم يردّهم الخوف فتقاطروا ليحرزوا تلك الكنوز فحملوها راجعين بسرعة الى دورهم واذا بالمياه عادت بغتة فاغرقتهم جميعاً. امّا الذين كانوا على الساحل فهربوا لينجوا بنفسهم من الغرق إلّا ان جدران الابنية المتساقطة بفعل الزلزال قتلتهم فماتوا تحت الردم وانتشر الحريق في المدينة بعد خرابها مدَّة شهرين فحوَّل مبانيَها الى رماد وحجارتها الى كلس»

دُكَّت ابنية بيروت الشامخة واصبحت قاعاً صفصفاً وهلك تحت انقاضها جمٌّ غفير من الاهلين والاجانب الساكنين فيها. وقد اذاقت المنيَّة كأسها المرّ نخبة الشبّان المتقاطرين اليها لدرس الحقوق في مدرستها الرومانيَّة التي كانت تاجاً بهيًّا على مفرقها تُباهي بهِ اعظم المدن اخواتها

ولم يرضَ ارباب الامر ان تبقى في قبرها فاسرعوا الى اصلاح ابنيتها وترميم معاهدها وكانوا في اثناء ذلك نقلوا مدرستها الفقهيَّة الى صيداء ثم اعادوها الى بيروت بعد سنين قليلة على الرغم من زلزال آخر حدث سنة ٥٥٤ . ثم عادت الامور الى مجاريها واخذت الدروس تسير سيرها القانونيّ بحيث استبشر الناس ببلوغها عظمتها السابقة واذا بحريق هائل نشب في احيائها سنة ٥٦٠ فكان لها كثالثة الاثافي وختام هلاك المدينة في ذلك القرن. فصرخ احد المعاصرين يرثيها وجعل الكلام عن لسان بيروت فقالت:

«ويلاه انا اشأم المدن حظّاً واسوأها حالاً رأت عيني جثث ابنائي متراكمةً في ساحاتي دفنتين في ظرف تسع سنين رماني فولكان (اله النار) بسهامهِ المتَّقدة بعد ان صدمني نبتون (اله البحر) بتيَّاره الهائل. وأسفي على جاني السابق طمسهُ الدهر فأحالني الى رماد. فيا عابري الطريق ابكوا لسوء طالعي واندبوا بيروت المضمحلَّة»

وبقيت بيروت مسجَّاةً بكفنها مطمورة تحت رمادها ردحاً من الدهر كما اشار

الى ذلك السائح انطونين المعروف بالشهيد لمّا اجتاز بجوارها في اواخر ذلك القرن السادس قال :

« وصلنا الى المدينة الفائقة الجمال بيروت التي فيها كانت قبل هذه السنين تلك المدرسة الحقوقيّة الذائعة الصيت . وهي الآن قد استولى عليها الخراب». والحقّ يقال انّ بيروت بعد تلك النكبة لم تعُد الى رونقها السابق مع نهضتها في القرون الوسطى في عهد الصليبيين وفي زمن مماليك مصر . فبقيت كمدينة صغيرة حتى اشرق عليها نور القرن التاسع عشر فنفضت عنها ثوب خمولها وجلست ثانية على منصّة المجد . والامل معقود على رقيّها الثابت بفضل فرنسة وليّة امرها وصديقتها وحاميتها ؟

خاتمة القسم الاوّل

وبذكر هذه النكبات التي حلّت ببيروت نختم هذا القسم الاوّل من تاريخها وآثارها . وممّا سبق يتّضح للقرّاء انّ هذه المدينة احرزت لها في توالي الاعصار منذ الازمنة السابقة للتاريخ البشري مفاخر جمّة فاصبحت من حواضر البلاد التي تتزاحم الدول على امتلاكها . ولعلّها فاقت على غيرها من مدن فينيقية بحيث جمعت في ربوعها ضروب الرقي والحضارة التي خُصّت بصنف واحد منها شقيقاتها الساحليّة . وقد تبيّن من ابحاث هذا القسم الاوّل ان بيروت تجاري رصيفاتها بقدَمها وتجارتها وصناعتها لا بل غلبتها بآدابها وفنونها . فكأنّ الدهر حسدها على رقيّها فضربها بتلك الزلازل ليعرف اهلُها ان لا شيء يبقى على الارض الـذي تفنى العوالم وهو وحده ثابت الى آخر الدهر



القسم الثاني

اخبار بيروت منذ ظهور الاسلام الى القرن التاسع عشر

البحث الاول

بيروت في عهد العرب

كان تأثير الزلازل في بيروت مؤلمًا فبقيت عدّة سنين طامسة المحاسن كاسدة الاسواق تُرى في انحائها آثار الخراب والحريق . على انّ ملوك الروم والباقين من اهلها لم يشاؤوا ان يهملوها ولبيروت ما لها من حُسن الموقع برًّا وبحرًا ومن الخواصّ الممتازة ادبًا واقتصادًا . فاخذوا في اواخر القرن السادس يهتمّون لإصلاح مبانيها وتجديد ما دثر من ابنيتها . فما لاح نور القرن السابع حتى عادت لها مسحةٌ من بهائها السابق واستؤنفت فيها المعاملات التجاريّة .

فكان البيروتيّون يعقدون الامل على رجوع وطنهم الى الرقيّ التامّ لولا ما حصل وقتئذٍ في دولة الروم من الاضطرابات في عهد ملوكهم موريقيوس (٥٨٢–٦٠٢) وفوقاس (٦٠٠–٦٠٢) وهرقل (٦١٠–٦٤١) فانتهز ملكا الفرس كسرى انوشروان سنة (٥٧٨) ثم كسرى أبرويز (٦٠٦–٦٠٧) فغزَوا بلاد الشام وفلسطين ونهبًا وحرقًا وسبيًا ولم تهدأ الامور الى ان ظفر بهم هرقل الملك بعد حرب عوان (٦٢٢–٦٢٨) وعاد السلام للبلاد . وكانت فينيقية في تلك السنين اسعد حظًّا من سواها لعدول الفرس الى حواضر المدن في الداخلية كحلب وانطاكية ودمشق والقدس . وكان يتولى على فينيقية من قبل ملك الروم البطريق نيقيطاس فتصرّف بالفطنة والحزم فنجت بهمّته سواحل الشام ومن جملتها بيروت من تلك النكبات الهائلة . على انّ هذا السلام لم تطُل مدّته . وما لبث العرب في عهد عمر بن الخطّاب ان

انبثُوا في ارض حوران ثم في فلسطين ثم في الشام تحت قيادة خالد بن الوليد وابي عبيدة بن الجرّاح ويزيد بن ابي سفيان ففتحوا تلك البلاد وتقدّموا الى دمشق فاستولوا عليها في ايلول سنة ٦٣٥ وبعد واقعة اليرموك دخلوا الى نواحي سوريّة الشمالية وتملّكوا على اورشليم (٦٣٧)

امّا بيروت وسواحل الشام فقال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٢٦) : « ان يزيد (بن ابي سفيان) اتى بعد فتح مدينة دمشق صيداء وعَرْقَةَ وجُبَيْل وبيروت وهي سواحل وعلى مقدّمتهِ اخوهُ معاوية ففتحها فتحاً يسيرًا وجلا كثيرًا من اهلها. ثمّ انّ الروم عادوا فغلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عُمر بن الخطّاب واوّل خلافة عثمان بن عفّان فقصدهم معاوية ففتحها ثمّ رمّها وشحنها بالمقاتلة واعطاهم القطائع ». امّا الواقدي فروى في كتابهِ فتوح الشام (طبعة مصر ٢ : ٥٢) عند ذكره فتح مصر على يد عمرو بن العاص انّ عمرًا دخل القيسريّة يوم الاربعاء في العشر الاوّل من رجب سنة ١٩ للهجرة (٦٤٠م) ووصل الخبر الى الرملة وعكّة وعسقلان ونابلس وطبريّة فعقدوا كلهم صلحاً مع المسلمين وكذلك اهل بيروت وجَبلة واللاذقيّة وملّكَ الله الشام للمسلمين »

وقسّم العرب بلاد الشام الى خمسة أجناد جعلوها كالعاملات والسناجق وهي دمشق وحمص وقنّسرين والاردن وفلسطين وقسموا كل جند الى كُوَر. وكانت بيروت كورةً منوطة بجُند دمشق

وبقي معظم اهل بيروت مدّةً طويلةً كاهل المدن الساحليّة من النصارى الوطنيين بينهم بقايا من الروم. فاراد معاوية ان يحصّن المدينة في وجه الاعداء فاستدعى قوماً من الفرس ليستوطنوا تلك المدن. ولنا شاهد على الامر في ما كتبهُ الجغرافي العربي اليعقوبي في كتاب البلدان قال (ص ٣٢٠ من طبعة ليدن) يذكر جُند دمشق : « ولجند دمشق من الكوَر على الساحل كورة عَرْقة... فيها قوم من الفُرس... ومدينة أطرابُلس واهلها قوم من الفرس.. وجُبيل وبيروت وصيداء واهل هذه الكُوَر كلّها قومٌ من الفرس نقلهم اليها معاوية بن ابي سفيان ». ولا شكّ ان المتاولة الشيعيّين والنصيريين الذين في سواحل الشام حتى يومنا من ذرّيّة هؤلاء الفرس

وقال صالح بن يحيي في تاريخ بيروت (ص ٢٣) : « ثمّ صار المسلمون يتكاثرون

فيها (اي في بيروت) والروم يقلّون منها وقتاً بعد وقت حتى صار اكثر اهلها مسلمين »

وليس لنا من اخبار بيروت في أيام الدولة العباسيّة الّا النزر القليل نرويه هنا كما وجدناهُ في تواريخ العرب وفي اسفار رِحلاتهم واوصافهم للبلدان. فمن ذلك ما رواهُ ابو جعفر الطبري في ذيل المذيّل في تاريخ الصحابة والتابعين (الجزء الثالث ص ٢٥١٤) عن الاوزاعي قال : « هو عبد الرحمٰن بن عمرو ويكنّى ابا عمرو قيل له الاوزاعي لانتسابه الى الأوزاع وهو بطن من همْدان وكان يسكن بيروت ساحل من سواحل الشام وكان في زمانه احد مفتي تلك الناحية ومحدّثيهم وذوي الفضل منهم وتوفي في بيروت سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) في آخر خلافة ابي جعفر المنصور وهو ابن سبعين سنة ». وزاد صالح ابن يحيي افادةً في تاريخ بيروت فقال عنه (ص ٢٣-٢٤) : « الاوزاعي هو امام اهل الشام وعالمهم قيل انه اجاب في سبعين الف مسألة وصار يُعمل بمذهبهِ في الشام نحو مائتي سنة ... وكان عظيم الشأن بالشام وكان امرهُ فيهم اعزّ من امر السلطان... وكان مولدهُ ببعلبك سنة ٨٨ هجرية ٧٠٧ مسيحية) وقيل ٩٣ هجرية (٧١٢م). ومنشأه بالبقاع ونقلَتْهُ أمهُ الى بيروت فرابط بها الى ان مات »

وقبره على ما افاد ابو الفداء في تاريخ سنة وفاته (ج٢ ص٧) في قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس (ويروى حنتوش) وهو في عهدنا مزار بخارج المدينة جنوبيّها الغربي. ويقول علماء المسلمين انه كان يدرّس في الزاوية المعروفة باسمه حتى الآن جنوبي السوق الطويلة وهناك سبيل أنشئ سنة ٩٣٥هـ (١٥٢٨م) تذكارًا له

ثم ذكر صالح بن يحيي ابنه محمدًا ولد الاوزاعي قال : « انهُ كان عابدًا قانتاً وكان يُظَنّ فيهِ انهُ من الأبدال[1] عاش بعد ابيهِ عشرين سنة ». وألحق بالاوزاعي وبابنهِ بعض الزهاد الذين عبدوا الله في بيروت او امتازوا بعلومهم الدينيّة. كالوليد بن مَزْيَد العُذري المولود سنة ١٢٦هـ (٧٤٤م) المتوفى سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م) وكابي الفضل العباس ابن الوليد البيروتي المولود سنة ١٧٩هـ (٧٩٥م) والمتوفى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣ م) وكابي مُسهر البيروتي وعبد الله بن اسماعيل البيروتي ومحمّد بن عبد الله البيروتي المعروف بمكحول الحافظ المشهور المتوفى سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م)

1) اطلب مقالة واسعة في الأبدال في المشرق (١٢ [١٩٠٩] : ١٩٦-٢٠٤)

وفي اواسط القرن الرابع للهجرة ذكر الاصطخري بيروت في كتابهِ مسالك الممالك (ص٦٥ من طبعة ليدن) بقولهِ : «بيروت مدينة على شطّ بحر الروم خصبة (ويروى حصينة) من عمل دمشق بها كان مقام الاوزاعي»

واتّسع معاصرهُ ابن حوقل في وصف بيروت في كتابهِ المسالك والممالك. واحسن في تعريف بعض خواصها وطباع اهلها قال (ص١١٦) : «بيروت على ساحل بحر الروم. . . وبها يُرابط اهل دمشق وسائر جندها واليها ينفرون عند استنفارهم وليسوا كاهل دمشق في جفاء الاخلاق وغِلظة الطباع وفيهم من اذا دُعي الى الخير اجاب واذا ايقظهُ الداعي اناب . وببيروت هذه كان مقام الاوزاعي وهي ذات نخيل وقصب سكر وغلّات متوفرة . وتجارات البحر عليها دائرة وسابلتها غير منقطعة . حصينة خصيبة متينة السور رخيصة الاسعار جيّدة الاهل مع منعة فيهم من عدوّهم وصلاح في عامّة امورهم» . فنِعم الوصف ويحقّ للموصوفين الافتخار بهِ ومنهُ يلوح انّ بيروت اصبحت في القرن العاشر للمسيح من أمهات المدن .

واجتاز في بيروت رحّالة عجميّ اسمهُ ناصر خسرو العلويّ سنة ١٠٤٧ للمسيح فقال عنها في كتاب رحلتهِ سفرنامه (ص١٣) ما تعريبهُ : «وسرنا من جُبيل الى بيروت حيث رأيت قنطرة من حجر تمتدّ الطريق فوقها فقدّرتُ انّ علوها خمسون كزًا(١ وجانبا القنطرة مبنيّان بحجارة بيضاء ضخمة ثقل الحجر نحو الف منٍ(٢ وعن يمين القنطرة وشمالها اسطوانتان من الآجرّ علوهما عشرون كزًا . وفوق الاسطوانتين عمودان من الرخام علوّ العامود ثمانية اكزاز لا يكاد رجلان ان يُلفّا على العامود ذراعيهما الضخمة . وكانوا بنَوا على هذين العامودين قناطر من الحجارة الكبيرة دون ملاط ولا كلس . والقنطرة الكبيرة هي في وسط هذه القناطر وهي تعلو فوقها نحو خمسين آرشًا(٣ وعلى ما اظنّ يبلغ علو كل حجر من تلك القنطرة سبعة آرش في عرض اربعة منهُ وثقلهُ نحو سبعة آلاف منٍ . وكل هذه الحجارة منقوشة بنقوش غاية في الدقة واللطف قلّما يُرى مثله في المصنوعات الخشبية . ورأيتُ في جدار هذه البناية بناءً آخر غيرها .

١) كان يساوي الكز عند العجم متراً و ٢٥ سنتمتراً

٢) كان وزن المنّ كرطلنا السوري تقريباً

٣) الآرش كالذراع

وكان جواب الذين سألتهم عن خبر هذه القناطر انها عريقة في القدم وتُدعى باب بستان فرعون . والسهل الذي يحيط بهذا الاثر فيهِ عدد لا يُحصى من الاعمدة ورؤوس الاكلّة من الرخام المنقوش بعضها مربعة وغيرها مسدّسة او مثمنة الزوايا . والحجر غاية في الصلابة لا يعمل فيهِ الحديد . وليس في جوار المكان مقلع يُستدَل منه على انهم استخرجوهُ منهُ .

وهناك حجر آخر مانع كان مركّبًا تركيبًا صناعيًا لا يؤثر فيه ايضًا الحديد . وفي بلاد الشام ترى السواري والاعمدة ورؤوس الاكلّة ملقاة في كل مكان وعددها ينيف على ٥٠٠،٠٠٠ قطعة لا يعلم احدٌ ماذا ارادوا من جمعها ولا من اين اتوا بها »

فمن وصف ناصر خسروا السابق ترى انّ الابنية العديدة التي كان الرومان والهيرودسون الثالثة بنوها في بيروت وجيرتها لم تُطمس آثارها بعدُ وإن خفي عنهم الغرض من وضعها . امّا القناطر التي ذكرها فلم نتحقق اين كان موقعها افوق نهر ابرهيم ام نهر الكلب ام نهر بيروت .

هذا مُجمَل ما ورد عن وصف بيروت في عهد الخلافتين الامويّة والعباسيّة . اما اخبارها السياسيّة فهي دون ذلك . وانما زعم البعض انهم وجدوا عند الامراء الارسلانيين كتاباتٍ تُروى فيها مآثر لاجدادهم منها انّ جدّهم الاعلى الذي ينتمون اليهِ الامير ارسلان بن مالك اللخمي جرت لهُ مواقع عديدة مع المردَة الذين وكّل اليهم ملوك الروم حراسة لبنان وانهُ توفي في سنّ الفيل سنة ١٧١ﻫ (٧٨٧م)

وكذلك رووا عنهم قدوم مراكب للروم الى بيروت سنة ١٨٥ ﻫ (٨٠١ م) فغزوا ساحلها واستأسروا عند مقام الاوزاعي اميرًا من الارسلانيين اسمهُ عُمر ابن الامير ارسلان . وبقي عندهم حتى فداهُ بعد ثلاث سنوات القاسم ابن هارون الرشيد

ورووا ايضاً ان الامير النعمان بن عامر الارسلاني تولى بيروت وصيدا وجبلها بامر ماجور التركي سنة ٢٥٧ﻫ (٨٧٢م) فبنى في بيروت دارًا عظيمة وحصّن صور المدينة وقلعتها ثم حارب مرَدة لبنان فجرى بينهُ وبينهم قتالٌ عظيم على نهر بيروت سنة ٨٧٥ في خلافة المتوكل العباسي . ويقال هناك انّ هذا الامير ردّ هجمة الفرنج سنة ٣٠٣ﻫ (٩١٥م) وكانوا نزلوا من سفنهم في رأس بيروت فسار اليهم واسر منهم ثمانية رجال وقتل ستّة ثم فاداهم على من اسروهُ من المسلمين . وفيها ايضًا ان احمد

[illegible]

[illegible]

ابن محمّد بن ابي يعقوب ابن هارون الرشيد مرَّ مع اسرتهِ في بيروت فاستقبلهُ الامير نعمان المذكور وخطب ابنتهُ السيدة كلثوم لابنهِ الامير منذر فزفّها اليهِ . وكانت وفاة الامير نعمان سنة ٣٢٥هـ (٩٣٦ م) وعمره ٩٨ سنة توفي في بيروت وبها دُفن ثم خلفهُ في ولايتهِ ابنهُ المنذر ولُقّب سيف الدولة

هذه المنقولات وردت في اوراق مصونة كما يقال عند الامراء بني رسلان ولم يمكنّا ان نتثبّت صحّتها بعَرْضها على غيرها من التواريخ فرويناها على علّاتها . وما هو اثبت ركناً واقوى سنداً انَّ بيروت دخلت مع بقية بلاد الشام في حكم دولة بني طولون المصريّة سنة ٢٦٤هـ (٨٧٧م) ثم خلفت الطولونيين دولةُ الاخشيديين سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥م) فاستولت على دمشق وجندها مدة بضع سنوات

وفي عهد الدولة الاخشيدية غزا الروم بلاد الشام وكان ملكهم يوحنا زيمساس (Jean Zimiscès) الذي يدعوه العرب بالشَّمشقيق فاخذ دمشق بالامان وسار الى سواحل الشام فنزل على صيداء وانصرف عنها على سِلْم وموادعة . قال ابن القلانسي في تاريخهِ المعروف بذيل تاريخ دمشق (ص١٤) : «ثم انتقل الى ثغر بيروت فامتنع اهلها عليه فقاتلهم وافتتح الثغر عنوةً ونهبهُ وسبى السبي الكثير منه» . وكان ذلك سنة ٣٦٤هـ(٩٧٤م) . وبعد سنتين استرجعها جوهر القائد وولّى عليها هفتكينُ التركي صاحبُ دمشق الاميرَ درويش بن عمر الارسلاني ثم عزلهُ منجوتكين خلف هفتكين وولّى مكانه الامير منصور

ثم انقلب الدهر على الدولة الاخشيديّة وصار الامر لدولة الفاطميين وبعد ان فتحوا مصر ارسلوا جيوشهم الى الشام فملكوها سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤ م) ولحقت بها سواحل الشام وفي جملتها بيروت . فصار الخلفاء الفاطميون يجعلون عليها عمّالهم ففي السنة ٤٠٥هـ(١٠١٤م) تولى على بيروت فتح احد غلمان صاحب حلب ابي نصر لؤلؤ من قبل الحاكم بامر الله وتلقّب مبارك الدولة وسَعْدها

واقطعهُ الحاكم بأمر الله مع بيروت صور وصيداء . قال صالح بن يحيي (ص ٢٦) «وكان ارتفاع الثلاثة اماكن المذكورة ثلثمائة الف دينار» . وهذا دليل واضح على خصب بيروت وحسن تجارتها في ذلك الوقت

وفي السنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) ولي عليها ابو سعيد قابوس من قبل المستنصر بالله

الخليفة الفاطمي وفي السنة ٤٤٨هـ(١٠٥٦م) اقطع المستنصر بالله عكّة وبيروت وجبيل لمعز الدولة ابن مرداس صاحب حلب عوضاً عن حلب واخذ حلب منهُ . لكنْ اقارب ابن مرداس استرجعوا بعد مدّة حلب فاستعاد المستنصر المدنَ الثلاث . قال صالح ابن يحيي : «وكان الذي يقوى على دمشق يملك السواحل» ومن جملتها بيروت

امّا احوال النصرانيّة في بيروت في أيام دولتي العرب الامويّة والعبّاسيّة فلا نكاد نعرف منها شيئاً . وانّما يذكر التاريخ من اساقفتها في تلك الحقبة المسمّى توما من اساقفة الروم المتحدين مع الكرسي الروماني كان في القرن التاسع للمسيح على عهد فوطيوس حضر المجمع الثامن المسكوني الذي اجتمع في القسطنطينية سنة ٨٦٩ وحكم على هذا البطريرك لجلوسهِ على الكرسي القسطنطيني بعد حكمهِ ظلماً على القديس اغناطيوس البطريرك الشرعي . وممَّن وقَّعوا على اعمال المجمع «توما اسقف بيروت» ثم نُقل توما المذكور الى رئاسة اساقفة صور وفي المجمع يقال انهُ كان نائباً عن رئيس اساقفة انطاكية لخلوّ هذا الكرسي وقتئذٍ من صاحبهِ

وقد اشتهر على عهد العرب في الكنيسة اليونانيّة احد ابناء بيروت وهو الشمّاس القديس رومانوس المرتّل كان معاصراً للقديسين يوحنّا الدمشقي واندراوس الكريطشي واشتهر مثلهما بتأليف التسابيح التقويّة بالشعر اليوناني كان مولدهُ في بيروت وخدم كنيستها برتبة شماس ثم انتقل الى القسطنطينية وفيها صنف تراتيلهُ الكنسية الفصيحة البليغة الدالّة على جودة قريحتهِ وعظم تقاه

البحث الثاني

بيروت

في اول عهد الصليبيين

حصلت في اواسط القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح اضطرابات عديدة في الشام بين الدولتين الفاطميّة والسلجوقيّة التركيّة . وكان اوّل ظهور السلجوقيين في العجم فاستولوا على العراق ثمّ تفرّعوا فروعاً مختلفة وبسطوا ظلّ سلطتهم على بلاد

ما وراء النهر والجزيرة وكرمان والاناضول وقونية

وكان اعظمهم شوكة معزّ الدين ملكشاه بن الب ارسلان فتملك على عدّة بلاد وزحفت جيوشه الى الشام ففتح قسماً كبيراً منها وولّى اخاه تُتُش على حلب ودمشق وصارت سواحل الشام ومن جملتها بيروت تحت سلطته. ولّما توفي تُتش سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) خلفهُ ولداهُ رضوان ودُقاق فأمّا رضوان فلم يطل ملكهُ وامّا دقاق بن تُتش فتولّي على حلب وجعل على دمشق احد امرائه الاتابك ظهير الدين طغتكين فدبّر امورها وساس المدن اللاحقة بها ولما توفي دقاق استقلّ بالحكم الى سنة وفاته ٤٩٧هـ (١١٠٥—١١٠٦)

وكان الفرنج الصليبيُّون في تلك الاثناء قدموا الى انحاء الشام لتحرير الاراضي المقدّسة. وقد استبشر الخليفة الفاطمي المستعلي بالله خيراً بقدومهم لكسر قوّة السلجوقيين كما روى ابن الاثير في الكامل (١٠: ١٠٤): «قيل انّ اصحاب مصر من العلويين لّما رأوا قوّة الدولة السلجوقيّة وتمكّنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزّة ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية اخرى تمنعهم . . خافوا وارسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوهُ ويكون بينهم وبين المسلمين»

ومن المعلوم انّ الفرنج فتحوا انطاكية سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) ثم ساروا الى بيت المقدس مارّين بوادي العاصي ففتحوا معرّة النعمان وصالحوا اهل حمص ثمّ عدلوا الى سواحل الشام بعد ان قطعوا قسماً من البقاع فجروا على سيف البحر فاستولوا على طرطوس واللاذقيّة وصالحهم ابن عمّار امير طرابلس فواصلوا السّير حتى بلغوا بيروت في اواسط ايّار. بعد ان قطعوا دربند نهر الكلب. وكانت بيروت لا تزال في حكم الدولة السلجوقية يأمر فيها احد الامراء التنوخيين باسم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق فطلب الى زعماء الفرنج ان يكفّوا عن أذى المدينة واهلها ولا يعبثوا بغلّاتها فرضوا بذلك على شرط أن يقدّم لجنودهم حاجتهم من الاقوات والذخائر بثمن معتدل

ثم سار الفرنج الى القدس الشريف ففتحوهُ وملّكوا على المدينة غودفريد وهو غودفروا دي بوليون فلم تطل مدّتهُ فمات في السنة التالية (١٨ حزيران ١١٠٠م) وانتدب زعماء الفرنج اخاه بودوين او بغدوين صاحب الرها ليخلفه في ملكه فقدم من

الرها ومرّ بساحل بحر الشام فلما وصل الى دربند نهر الكلب اجتمع عليه امراء بيروت وصيدا وصور وعكاء ليصدّوه عن قطع هذا المضيق فاستطرد لهم بغدوين وحمل الامراء على جيشه فكرّ الافرنج راجعين وتعقبوا جنود الامراء وبدّدوا شملهم واجتازوا الدربند

ولّما ثبت الامر لبغدوين في بيت المقدس فكّر في فتح المدن الساحلية فزحف بجيشه الى بيروت مرة اولى وضايقها سنة ١١٠٢م (٤٧٥هـ) لكنه رحل عنها بعد ان اطال المقام عليها اذ لم يرَ فيها مطمعاً وكان اميرها عضد الدولة استلطف الفرنج بما قدّم اليهم من الذخائر

١. فتح الفرنج لبيروت وملكهم عليها المرّة الاولى (١١٠٩—١١٨٧)

ثمّ عاد اليها بغدوين في السنة ١١٠٩ (٥٠٣هـ) مع الكونت برتران دي صنجيل ونزل على ثغرها برّاً وبحراً وعاونهما جوسلين صاحب تلّ باشر فعملوا اولاً برجاً من خشب صنوبر بيروت ونصبوه على سور المدينة فكسرهُ المسلمون بحجارة المناجيق. فجهّزوا برجين آخرين لمحاربتهم لولا ان الملك الافضل امير الجيوش ارسل في اثناء ذلك اسطولاً من مصر يتألف من تسع عشرة مركباً حربية فظهروا على مراكب الفرنج وملكوا بعضها وادخلوا الميرة الى بيروت فقويت بها نفوس اهلها

أما الملك بغدوين فانه ارسل الى السويديّة يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم فوصل منها الى بيروت اربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة فزحفوا الى بيروت باسرهم في نيسان من السنة ١١١٠ ونصبوا البرجين على اسوار المدينة واشتدّوا في القتال فقُتل مقدّم الاسطول المصري وخلق كثير من المسلمين يوم الجمعة ٢٨ من شوال. ثم هجم الفرنج على البلد في آخر النهار فملكوهُ بالسيف قهراً وهرب اميره الذي كان فيه مع جماعة من اصحابه لكن الفرنج ادركوه وقتلوه ونهبوا البلد وسبوا من كان فيه واسروا كثيرين واستصفوا اموالهم وذخائرهم . هذه خلاصة ما رواه ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (ص ١٣٨)

﴿كنيسة مار يوحنا في بيروت﴾ وفي تلك السنة امر الملك بغدوين ببناء كنيسة كبيرة في بيروت على طراز الكنائس اللاتينية فشيّدها على اسم القديس يوحنا المعمدان

وهي على شكل مصلَّب ذي ثلثة اسواق وتقدُّم بنقشها وتزيينها بالتصاوير البديعة . وكان النصارى يصلّون فيها مدة ولاية الصليبيين على بيروت . قال صالح بن يحيي في تاريخ بيروت(ص٥٨) : « ولما قدَّر الله بنزع بيروت من يد الفرنج استقرت كنيستهم جامعاً وكانت تُعرف عندهم بكنيسة مار يوحنا وكان بها صور فطلاها المسلمون بالطين وبقي الطين الى ايام الجد (أي جدّ المؤلف في اواخر القرن الرابع عشر) فبيَّضه وازال آثار تلك الصور . وكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة . فلم يكملوا في بعض الاوقات اربعين شخصاً . ثم تكاثر المسلمون بها فجعلها الله دار سلام وايمان الى يوم الدين » . والجامع المذكور هنا هو الجامع الكبير الذي فيه مقام النبي يحيي ولا يزال عامرًا وقد بقي عند بابه الشرقي بقرب المدخل على شمال الداخل منه كوَّة مكتوبة فيها باليونانية آية الزبور (٢٨ : ٢) : انَّ صوت الرب على المياه

ولعل كنيسة مار يوحنا بُنيت عوضاً عن كنيسة اخرى اقدم عهداً تبعد عنها نحو مئة ذراع وهي التي وجدت اثارها في مدَّة الحرب الاخيرة عند سوق البازركان

﴿ تحصين الفرنج لبيروت ﴾ ولما تولى الفرنج على بيروت سعوا بتحصينها فبنوا على طرفيها برجين واصلحوا سورها وكان الملك بغدوين أقطعها لاحد اشراف دولته اسمه فُلك دي غين (Foulques de Guines) او دي غِنس (de Guisnes) وشرَّفه بلقب بارون . ولما مات المذكور خلفه على ولاية بيروت سادة من ذريته تتابعوا في ملكها الى السنة ١١٨٧

﴿ التلاحقة في بيروت ﴾ ومن جملة ما يُذكر من احوال بيروت مدة تملُّك الفرنج عليها حلول المشايخ التلاحقة في ربوعها سنة ١١٤٤م (٥٣٩هـ) فسكنوا راس بيروت حيناً وكان في المدينة قوم من امراء بني الحمراء فجرت بين الفريقين مشاجرة قُتل فيها احد بني الحمراء فخاف التلاحقة وهربوا الى مقاطعة الغرب . ثم حضر منهم الى بيروت الشيخ شاهين وكان لهُ فيها قيسارية باسمه فبلغ خبر قدوم اصحاب بني الحمراء فاغتالوه وقتلوه آخذين بثار اميرهم . لكن التلاحقة اجتمعوا تحت امرة ولدي الشيخ شاهين وانحدروا الى بيروت متسلّحين وكسروا ابوابها المغلقة وقتلوا كثيرين من اهلها . ومما اخبره ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (ص ٢٣٦) انَّ صاحب بيروت الفرنجي ضبط لاحد تجار دمشق احمالاً من الكتَّان سنة ٢٥٧هـ (١١٣٢م) واذ طالبهُ

بها التاجر لم يُجب الى شكواه فارسل التاجر الى بانياس قوماً دخلوها فجأة ونهبوها وكانت في ايدي الفرنج

وفي السنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) روى ابن القلانسي (ص ٣١٥) وشهاب الدين المقدسي في كتاب الروضتين (١ : ٨٠) ان اسطولاً مصريًا كانت عدَّةُ مراكبه ٧٠ مركباً حربيَّة مشحنة بالرجال قصدوا سواحل الشام فنزلوا الى بيروت وقتلوا ونهبوا واحرقوا كما فعلوا في بقيَّة ثغور الشام

وفي السنة ١١٦٢م توفي في بيروت ملك القدس بغدوين الثالث وكان راجعاً من انطاكية الى حاضرة مملكته فمات على ما يقال مسموماً بدسيسة طبيب يهودي يُدعى براقاً .

٢ انتزاع السلطان صلاح الدين بيروت من الفرنج

وفي السنة ١١٨١ وفد السلطان صلاح الدين الايوبي بعساكره الى بيروت فغزا أرباضها وقطع كرمها لكنه لم يفتح المدينة . قال ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٧٨هـ . « ثم سار صلاح الدين من دمشق الى بيروت فنهب بلدها . وكان قد امر الاسطول المصري بالمجيء في البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها . وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة ايام وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها انَّ البحر قد القى بطسةً للفرنج فيها جمعٌ عظيم منهم الى دمياط كانوا خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا مَنْ بها .. ورحل السلطان من بيروت » . واما ابن شداد فقال في سيرة صلاح الدين « انه نزل بيروت ولم ينل منها غرضاً واجتمع الفرنج ورحَّلوه عنها »

ثم عاد اليها السلطان بعد انتصاره العظيم على الصليبيين في واقعة حطّين قرب طبرية سنة ١١٨٧ وفتحه بيت المقدس وعدَّة مدن اخرى فقدم الى بيروت وفتحها بعد ان حاصرها ثمانية ايام ونصب عليها المجانيق التي اتخذها من زيتونها . فسأله الفرنج الامان فأمَّنهم فتوجهوا الى صور وتسلَّم صلاح الدين المدينة ونصب على اسوارها السنجق السلطاني في ٢٩ جمادى الاولى وقيل في ٢٧ منه سنة ٥٨٣هـ (اوائل آب ١١٨٧م) ثم ولَّى عليها اميرًا يُدعى سيف الدين علي الهكاري المعروف بابن المشطوب

ثم سار ابن المشطوب في صحبة صلاح الدين لمحاربة الفرنج في عكا فوُلّي عليها رجل واسع الشهرة وهو الامير عزُّ الدين منقـذ احد اصحاب قلعة شيزر . قال فيه صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص ٣٥–٣٦) : « وكان من المعظَّمين عند السلطان حتى لم يكن يقدّم عليهِ احدًا في المشورة والرأي وهو الذي بنى قلعة عجلون » ١)

ولما فتح الفرنج عكا تفقد صلاح الدين سواحل الشام واقام في بيروت اياماً . وفي اثناء وجوده حضر اليه بوهيمُند الثالث صاحب انطاكية . قال ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٨٨ (١١٩٢ م) : « ولما وصل السلطان صلاح الدين الى بيروت اتاه بيمُنـد صاحب انطاكية وطرابلس واعمالها واجتمع بهِ وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده » . وقال ابن شدّاد في سيرة صلاح الدين التي عنوانُها : النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة (Historiens des Croisades : *Historiens Orientaux* III. 346) ان السلطان « بالغ في احترامهِ واكرامـهِ ومباسطتهِ وانعم عليه بالعمق واعزاز ومزارع تعمل خمسة عشر الف دينار » . وهي اقطاعات بقرب انطاكية

البحث الثالث

رجوع الصليبيين الى ملك بيروت

ثمَّ مات صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٩١ (٧ آذار ١١٩٤) وكان الصلح قد استقرَّ بين المسلمين والفرنج في اواخر أيامهِ . قـال ابن الاثير في تاريخ السنـة ٥٩٣ (١١٩٧ م) :

« فلمّا توفي (صلاح الدين) وملك اولادهُ بعدَهُ جدَّد الملكُ العزيز الهدنة مع الكُنْدَهري ٢) وزاد في مدَّة الهدنة وبقي ذلك الى الآن (اي السنة ٥٩٣) . وكان بمدينـة بيروت امير يُعرَف بأسامة وهو مُقطَعُها فكان يرسل الشواني فتقطع الطريق على الفرنج . فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرّة الى الملك العادل (اخي صلاح الدين) والى الملك العزيز (ابنهِ) بمصر فلم يمنعا إسامة من ذلك . فارسلوا الى ملوكهم الذين داخل البحر يشكون اليهم ما يفعلهم المسلمون ويقولون : ان لم تُنجدونا والّا اخذ المسلمون البلاد . فأمدَّهم الفرنج بالعساكر الكثيرة . . . ووصل الخبر

١) هو الامير اسامة منقذ كان كاتباً بليغاً ولهُ عدة تآليف نشر منها المستشرق ديرنبورغ (Derenbourg) قسماً صالحًا اخصّها مذكراتهِ

٢) هو الكُنْت هنري دي شمبانية ابن اخي ملك الانكليز ريشَرْد قلب الاسد ونائبهُ بفلسطين

المسلمين بان الفرنج على عَزْم قصد بيروت فرحل العـادل والعسكر في ذي القعـدة (ايلول ١١٩٧) الى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت . فسار اليها جمعٌ من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجّة (٢١ ت ١) وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم اسامة من ذلكَ وتكفَّل بحفظها . ورحل الفرنج من عكًا الى صيدا وعـاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيداء وجرى بينهم مناوشة فقُتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل . وسار الفرنج تاسع ذي الحجة (٢٣ ت ١) فوصلوا الى بيروت . فلمّا قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معهُ من المسلمين فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة »

وكان الذي استولى على بيروت الملك أموري بمساعـدة الالمانيين . وفي تواريخ الفرنج ان الملك العادل سيف الدين جُرح في واقعة صيدا فقصد بيروت ليتحصَّن فيها الّا ان بعض الاسرى الذين كانوا في قلعتها عاينوا اسطولًا للنصارى مجتازًا امام المدينة فاشاروا اليهم وتمكّن الاسرى من قتل الحرس وفتحوا ابواب الحصن للفرنج فدخلوه . وفي اليوم التالي جاء عسكر البرّ من جهة صيدا فدخلوا المدينة في ٢٥ ت ١ سنـة ١١٩٧ واطلقوا سبيل ١٤،٠٠٠ من الفرنج كانوا فيها

ثمَّ توالت الحروب بين المسلمين والفرنج نحو سنةٍ كاملة فكان الملك العادل والملك العزيز دائبَين على محاربة الصليبيين الى ان اضطرَّ الملكُ العزيز الى الذهاب الى مصر لتأييد سلطانهِ فيها . فتردَّدت الرسل بينهُ وبين الفرنج حتى اصطلحوا على ان تبقى بيروت بيدهم . وكان الصلح في شعبان سنة ٥٩٤ (حزيران ١١٩٨) كما افاد ابن الاثير في تاريخهِ الكامل

البحث الرابع

بيروت وامراؤها الفرنج من أسرة ديبلين (١١٩٨–١٢٩١)

ثمَّ اراد الملك اموري ان يتفرَّغ لامور مملكتهِ فتنازل عن حكمها لاحد امراء دولتهِ المدعو كونراد دي مونفرّا (Conrad de Monferrat) وكان لامرأتهِ ايزابلّا ملكة اورشليم سابقًا شقيقٌ ذو خصالٍ فريدة في النجابة والشهامة وحسن السياسة يُدعى جان ديبلين (Jean d'Ibelin) . وكان من اسرةٍ شريفـة عريقة في النسب تفوَّقت على سواها في الحروب الصليبيّة فعُهد الى ذويها اجلّ المناصب وقلِّدوا الامارة

على عدّة مدن كيافا وارسوف ورملة ونابلس . وكان ابوهُ يدعى باليان (Balian) من فرسان الفرنج استولى على يُبْنَى وهي بلدة جنوبيّ يافا تبعد عنها مرحلةً في وسط الطريق بين لُدّ واشدود وهي اليوم خراب وكان الفرنج يدعونها إملين او ابلين فاليها نُسب باليان دَبْلين (Balian d'Ibelin)

وكان ابنهُ جان من فرسان العصر الممتازين بفضلهم وجميل صفاتهم خلف اباه في ارثهِ فعُرف باسم جان ديبلين وقلّدهُ الملك رتبة كندُسْطيل (Connétable) لمملكة اورشليم . فلمّا انتدبهُ كوزاد دي مونفرا الى امرة بيروت تخلّى عن رتبتهِ ليتفرّغ لشؤون منصبهِ الجديد

وكان اوّل ما فكّر فيهِ عند توليتهِ على بيروت انهُ باشر في تحصينها فاقام اسوارها ودعّمها بالابراج ورمّم حصنها فصارت من احرز مدن سواحل الشام وأمنعها في وجه العدوّ . ولم يجتزئ بذلك بل فتح لها المدارس فراجت فيها سوق الآداب وزيّنها بالمعاهد الفخمة ونشّط ارباب الحرف والصنائع ووسّع نُطُق التجارة واستدعى الى ثغر بيروت اهل البندقيّة والمتاجرين من الجنويّين والپيزان فكانت سفنهم تقدم الى بيروت ناقلةً اليها مرافق الفرنج وتنقل منها الى انحاء الغرب محصولات الشام

وبقي جان ديبلين في امرتهِ خمساً وثلثين سنةً ساس بيروت في مدّتها بحكمةٍ نادرة ودافع عنها دفاع الابطال . واشتهر ببلاغة لسانهِ كما نصّ عليهِ صاحب كتاب الدستور الاورشليمي (Assises de Jérusalem) حتى ذاع صيتهُ في الشرق والغرب . وكان لا يقع امرٌ ولا يجري حادث في الشام وقبرس وفلسطين إلّا ولهُ فيهِ نصيبٌ كبير . وكان احد مستشاري دولة الفرنج في تدبير امور مملكتهم الشرقيّة .

وورث من اهلهِ مدينة يافا وكانت زوجتهُ ابنة صاحب أرسوف فلمّا مات حَمُوه صار هذا الحصن في حوزتهِ . فطمع فيهِ ذوو المطامع وحاولوا غير مرّة ان ينزعوهُ من يده وساروا الى محاربتهِ . فتصدّى لهم جان ديبلين وردّ غاراتهم حتى أيسوا من فتح الحصن

وكان لجان ديبلين اخٌ يدعى فيلبس تعيّن وليًّا للملك هنري دي لوزنيان ملك قبرس قبل بلوغهِ فمات في تلك الاثناء . فخلفهُ جان في نيابتهِ . ومن مآثرهِ في اثناء تدبيرهِ لتلك المملكة انهُ قام في وجه الملك فردريك الثاني عدوّ الكرسي الرسولي والمحروم من الحبر الاعظم غريغوريوس التاسع لمّا قصد الاراضي المقدّسة مع جيش

من اللُّنبرديّين فخاف الملكَ الكامل سلطان مصر ووعدهُ بمحاربة الملك المعظم صاحب دمشق فاعطاه الملكُ الكامل مدينةَ القدس وبيت لحم وفتح فردريك بعض المدن التي في ايدي الصليبيين واستولى على قبرس فحاربهُ الصليبيون . وكان جان ديبلين احد زعماء الفرنج الذين سعوا الى كبح جماحهِ وردّ غارات اللمبرديّين فنالهُ منهم اذًى وافر لكنهُ لم يزل يناوشهم القتال ويدافع عن الملك وعن مدينة بيروت الى ان فاز بالنصر في مدينتَي اغريدي وسيرين من اعمال قبرس وكسر شوكتهم . سنة ١٢٣٣ فرجعوا الى ايطالية خاسرين . فخوّل هذا الانتصار مجدًا جديدًا جان ديبلين الذي بفضلهِ ثبت على عرش قبرس ملكها الشرعي وتمنّعت بيروت بحصانتها من معرّة اعدائهِ .

كانت وفاة جان ديبلين سنة ١٢٣٦ في عكا قطرهُ فرسُهُ فمات بعد ان اوصى بالامرة لابنهِ البكر وهو باليان الثالث وولّى على ارسوف ابنهُ الاصغر جان سميَّهُ . وقد جرى باليان على آثار ابيه فاجتمع مع امراء الفرنج لمحاربة من بقي في صور من حزب الالمان في شهر تموز سنة ١٢٤٣ فاباد ذكرهم . وقد اختارهُ الامراء كُنْدُسطبلًا لمملكة قبرس . وكان باليان الثالث رجلًا عاقلًا واسع الادب دمث الاخلاق

وخلفه بكره جان الثاني المعروف بالصغير نحو سنة ١٢٥٣ فتوفي سنة ١٢٦١ فصارت إمرة بيروت الى ابنتهِ الكبرى المدعوّة ايزابلّا (١٢٦٤–١٢٨٠) ثم خلفتها الصغرى المسماة اشيف (Eschive) فاقترنت بالزواج مع امير مدينة صور هُمفروا دي مونفور (Humfroi de Monfort) فاورثتهُ حقوقها على بيروت . ولمّا مات زوجها سنة ١٢٨٤ صار ابنها روبان (Rupin) سيدًا على صور وبيروت وهو آخر امراء بيروت من الفرنج[١] . فانّ في ايامهِ كان فتح بيروت على عهد الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن الملك منصور قلاوون الصالحي تولى الملك بعد ابيه ٦٨٩ﻫ الى ٦٩٣ ﻫ (١٢٩٠–١٢٩٤) ففتح اولًا عكا ثم المدن الساحلية . وكان صاحب بيروت ارسل الى الملك الاشرف في وقت حصاره لعكا يطلب منه الامان فاجابه الى طلبهِ . لكنه ارسل بعد ذلك احد كبار دولتهِ وهو علَم الدين سنجر الشجاعي ليضع يده عليها . قال صالح ابن يحيى (ص ٤٣–٤٤) :

١) اطلب كتاب شلومبرجر عن مسكوكات اللاتين في الشرق SCHLUMBERGER: Numismatique du royaume latin, (p. 116—118)

[illegible] (Balian) [illegible]

[illegible] (Balian d'Ibelin) [illegible]

[illegible] (Connétable) [illegible]

[illegible] (Assises de Jérusalem) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] (Ilachive) [illegible] (Humfroi de Montfort) [illegible] (Rupin) [illegible]

[illegible]

(1) [illegible] Schlumberger: Numismatique du royaume latin, (p. 116–118)

«فلما وصل سنجر الشجاعي الى بيروت تلقّاه صاحبها وخيّالتهُ احسن ملتقى وترل في القلعة وامرهم ان ينقلوا اولادهم وحريمهم واشغالهم الى القلعة ففعلوا وظنّوا انه يفعل ذلك شفقةً عليهم . فلما صاروا في القلعة قبض على الرجال وقيّدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الاحد ٢٣ من رجب سنة ٦٩٠ (٢٣ تموز ١٢٩١م) . . . ثم شرع في هدم سور المدينة وقلعتها وكانت محكمة البنا ، ثم جهّز اهلها الى دمشق وانفذهم منها الى مصر باجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء . ولما وصلوا الى مصر اطلقهم السلطان وقال : اماني باقٍ عليكم وخيّرهم بين العود الى بيروت او التوجه الى قبرس باجمعهم . وكانت مدة استلام الفرنج على بيروت في هذه النوبة خمساً وتسعين سنة وتسعة اشهر وثلاثة عشر يوماً »

امّا علم الدين سنجر الشجاعي فلم يلبث ان قُتل وكانت الحرب قد انتشبت بينهُ وبين الامير كُتُبُغا بعد موت الملك الاشرف الخليل فظفر اصحاب كُتُبُغا بسنجر وقتلوه شرّ قِتلة . قال ابن اياس في تاريخ مصر المعنون ببدائع الزهور (ج ١ ص ١٣٢) :

«كان سنجر الشجاعي هذا رجلًا مهيب الشكل قاسي القلب مظلم الصورة عسوفاً كثير الاذى اذا ظفر باحد لا يرحمه ولا يراعي في الانام خليلًا فلما ان قتل لم يرثِ له احد من الناس»

البحث الخامس

آثار الفرنج الصليبيين في بيروت

رأيت ما كانت عليهِ بيروت من العمارة والحضارة في عهد الصليبيين . وقد تلف كثير من آثارهم وصبر بعضها على الزمان من بعدهم

﴿ استحكامات الصليبيين ﴾ قد سبق ان سنجر الشجاعي هدم حصنها المنيع واسوارها وكانت استحكاماتها استوجبت اشغالًا طويلة فكان يحرسها شمالًا من جهة البحر صخور عالية ومن الجانب الغربيّ كانت تحميها خنادق مبلطة تحت حراسة سورَين حريزين تدعمهما عدّة ابراج غاية في المتانة لا تقوى عليهما كلّ قوّات العدوّ . وكان يزينها من الداخل ابنية حسنة الهندسة بديعة النقوش . وقد وصف السائح وِلبرند دي اولدنبرغ بعض قصورها فقال عن احدى غرفاته : «انها كانت مرصوفة بالفسيفساء وهي تمثّل مياهاً جارية يمرّ عليها النسيم فتتجعّد بهبوبهِ . وفي اسفلها رمل ناعم فيتعجّب الماشي فوقها كيف لا تغوص رجلهُ في اعماقهِ . وكانت جدران الغرفة مزدانة بقطع من الرخام المنقوش على صورة تأخذ بمجامع الابصار يظلّلها قبّة تمثّل

بصبغها الازرق شكل السماء . وفي وسط الغرفة حوضٌ من الرخام الصقيل الملوّن ينفذ اليها نسيم عليل من نوافذها فيرطّب حرارتها»

فكلّ هذه الاستحكامات والابنية الجميلة لم يبقَ لها اثر بدخول المصريين اليها ونهبهم لاموالها فبقيت بيروت خالية من التحصين الى ان عاد ملوك مصر وامروا بتحصينها ردًّا لغارات الغُزاة المسيحيّين من جنويين وكتّلان واهل قبرس فحموها من جهة البحر ومن الغرب بسور وقد استخدموا لحمايتها بقايا استحكامات الفرنج السابقة . وقد استدلّ جناب الكونت دومنيل دوبويسون (Cte du Mesnil du Buisson) على آثار من تحصينات الصليبيّين لبيروت (راجع مقالتهُ الممتعة في لستحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة في المشرق ٢٠ [١٩٢٢] : ٧٥١-٧٦٦ مع رسم بديع لبيروت القديمة)

﴿نقود الصليبيين في بيروت﴾ ضرب امراء الصليبيّين من سلالة إيبلين السابق ذكرهم نقودًا ذهبيةً وفضيةً ونحاسيةً وكلّها عزيزة جدًّا لم يبق منها سوى بعض افرادها في متاحف اوربّة الكبرى . وهذه المسكوكات التي رسمها العلّامة شلومبرجر (Schlumberger) في كتابهِ المعنون بنقود الشرق اللاتيني (Numismatique de l'Orient Latin, p. 118-119) تمثّل على احد وجهيها قلعة تعلوها الشُرفات وفي مدارها اسم بيروت باللاتينيّة وعلى الآخر صليب مع اسم جان ديبلين صاحبها .

﴿الرهبان الفرنسيسيّون في بيروت﴾ كان دخول الرهبان الفرنسيسيين في بيروت في عهد الصليبيين وكان ديرهم على ما جاء في سجلّات رهبانيّتهم على اسم القديس يوسف (١) . وكانت كنيستهم هي كنيسة المخلّص التي سبق لنا ذكرها (اطلب القسم الاوّل البحث التاسع ص ١٧) حيث جرت فيها معجزة الصليب الذي نزف دماً بضرب احد اليهود . ولمّا دخل المسلمون مدينة بيروت وهرب اهلها النصارى اضطرّ ايضاً الرهبان الى الخروج منها . لكنهم عادوا اليها بعد زمن كما سترى واليهم يشير صاحب تاريخ بيروت (ص ١٤٩) فدعا منزلهم كنيسة افرنسيسك

﴿ جامع بيروت الكبير ﴾ قد سبق لنا ذكر تشييد ملك القدس بودوان

(١) اطلب كتاب رؤساء الاراضي المقدّسة G. Golubovich: Superiori di Terra Santa, p. 216-7

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] (Cte du Mesnil du Buisson) [illegible] ٢٢٦–٢٠٧ [illegible]

[illegible] (Schlumberger) [illegible] Numismatique de l'Orient Latin, p. 118-119) [illegible]

[illegible]

(1) [illegible] G. Golubovich: Superiori di Terra Santa, p. 216-7

لكنيسةٍ على اسم القديس يوحنا المعمدان في بيروت سنة ١١١٠م . وهي التي حوّلها المسلمون بعد ذلك الى جامعهم الكبير وقد حفظوا ذكر القديس يوحنا بما يكرم هناك من مقام يحيى النبي والجامع لم يغيّر شيئاً في هندسة الكنيسة المبنيّة على طرز الكنائس اللاتينيّة على صورة صليبٍ لاتيني ووجهتها كوجهة الكنائس الشرقيّة من الغرب الى الشرق وانّما أُزيل ما كان فيها من الآثار النصرانيّة كالمذبح والوفه . وكانت جدرانها مزدانةً بتصاوير جميلة طُليت بالملاط بعد خروج الفرنج كما افاد صالح بن يحيى في تاريخهِ (ص ٥٨) . وانّما بقي قريباً من باب الجامع الشرقي كما سبق (ص ٥٢) اثر من بنائهم يُشار به الى وضع جرن المعموديّة بقرب ذلك الباب تدلّ عليهِ آيةٌ من الزبور

« مناشير للصليبيين » ومن آثار الصليبيين التي عرفناها بفضل صاحب تاريخ بيروت كتابٌ لصاحب بيروت الذي تولّاها مدّة قبل دخول المصريّين اليها وهو الامير همفري دي مونفور (Humfrey de Monfort) الذي بتزوُّجهِ ابنة جان ابلين الثاني المعروفة بأشيف (Eschive) صارت لهُ امارة بيروت . توفي سنة ١٢٨٤ في ١٢ شباط وهذا نصّ المنشور مع اغلاطهِ(١ :

ومن مضمون كتاب بوهبة شكارة العمروسيّة من هنفري دي دمونفرب (كذا) الفرنجي صاحب بيروت وهو انهُ قد وهب شكارة بدارها (بذارها) غرارة ينصبها كرم بشرط ان لا يبيعها ولا يوهبها ومتى فعل ذلك رجع في وهبتهِ . ومن شروطهِ مساعدة لصحوبيّتهِ وان لا يخلّي في بلادهِ هارب من بلد بيروت الّا ويردّه صاحًا او بغيرهِ وان لا يمكّنهُ من الاقامة ازيد في (من) ثمانية ايّام ولا يمكّن احد من بلاده يفسد في بلد بيروت (اعني الساحل لان بلد بيروت كانت حبالهُ في ذلك الوقت للمسلمين وكان الساحل للفرنج . تاريخ هذا الكتاب سنة الف وخمسمائة واثني وتسعين للاسكندر والكاتب كتب اسمهُ جرج بن يعقوب كاتب القلعة والكتاب في رقّ وفي ادناه ختم في شمع احمر خيّال بفرسهِ ورمحهِ وترسهِ وهو رنك صاحب [بيروت] ودائر الختم كتابة بالفرنجية في اصل الختم)

يؤخذ من هذا المكتوب انهُ كُتب سنة ١٢٨٠ للمسيح ووجّههُ مونفري دي مونفور صاحب بيروت الى احد امراء الغرب من بني بحتر وهو الامير جمال الدين حجّي بن نجم الدين المتوفّى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م)

١) اطلب ما كتبهُ في هذه المناشير العلّامة كلرمون غانو CLERMONT-GANNEAU: Recueil d'Archéologie Orientale, VI, 1-30

وقد روى صالح في تاريخ بيروت مكتوباً آخر كتبهُ صاحب صيداء الفرنجي ارنلد (Arnaud de Sagette) سنة ١٢٥٥م لحجّي المذكور نحيل القراء الى مراجعتهِ هناك (ص ٨٣—٨٤) .

ويستفاد من هذه المناشير حُسن العلاقات التي كانت بين الصليبيّين المتولّين على السواحل والامراء البحتريين المسلمين اصحاب جبل لبنان المشرفة عليها . حتى انّ أحد اعداء الامراء المسمّى تقيّ الدين نجا بن ابي الجيش سعى بهم زوراً الى ملك مصر الظاهر بيبرس مدّعياً بانهم حالفوا الفرنج وخانوا الدولة فألقى ثلثةً من امرائهم في الحبس (تاريخ صالح بن يحيى ص ١٠٢—١٠٣)

هذا جملة ما وجدنا من آثار الصليبيّين في زمن ولايتهم الاخيرة على بيروت ٥

البحث السادس

تاريخ بيروت في عهد مماليك مصر (١٢٩١—١٥١٥)

رأيت ما بلغتهُ بيروت من العمران في زمن تملّك الصليبيّين عليها . وما دخلها المصريّون حتى عادت الى خمولها لولا بعض ما نالتهُ من حسن مساعي امراء الغرب بما احدثوهُ فيها من الابنية لسكناهم ولتجارتهم . لكنّ بيروت لم تفقد في اعين الفرنج شيئاً من عظم شأنها سواء كان من جهة حصانة مركزها ام من جهة التجارة والاقتصاد . ولذلك تكرّرت عليها الغارات في عهد مماليك مصر المعروفين بالتركمان البحريين وها نحن نذكر اوّلًا تلك الحوادث التاريخيّة ثمّ نعود الى ذكر احوال امراء بني الغرب ومبانيهم في بيروت

لم يمرّ على خروج الفرنج من بيروت سبع سنين حتى حاولوا فتحها . قال النويري في تاريخه (اطلب تاريخ بيروت ٤٧—٤٨) :

« في العشر الآخر من شعبان سنة ٦٩٨هـ (شهر آب ١٢٩٩) وصل الى بيروت مراكب كثيرة وبُطَس(١ للفرنج فيها جماعة كثير من المقاتلين يقال انّ عددهم كان يبلغ ثلثين بطسة في كل بطسة منها نحو ٧٠٠ مقاتل وقصدوا ان يطلعوا من مراكبهم الى البرّ ويشنّوا الغارة على بلاد

١) البُطَس جمع بطسة لفظة اعجميّة يراد بها سفينة الحرب

الساحل. فلمّا قربوا من البرّ ارسل الله عليهم ريحاً شديدة ففرقت بعض السفن وتكسّر بعضها ورجع من سَلِمَ منهم على اسوإ حال وكفى الله المسلمين شرَّهم . (قال) وحُكي عن رئيس بيروت انهُ قال : والله لي خمسون سنة ألازم هذا البحر فما رأيتُ مثل هذه الريح التي جرَتْ على هذه المراكب وليست هي من الرياح المعروفة عندنا »

وذكر صالح في تاريخ ٢ من محرّم سنة ٧٠٥هـ (٢٦ تموز ١٣٠٥) بعد ذكره حملة آقش نائب الشام على كسروان أنهم اقطعوا التركمان اراضي كسروان فأدركوا موانئ البحر ودروب البرّ من ظاهر بيروت الى عمل طرابلس واستمرّوا الى زمن صالح اعني اواسط القرن الخامس عشر وشُهروا بتركمان كسروان وعُرفوا بهِ. (قال) : « وفي تلك السنة في العُشر الآخر من جمادي الاولى (تشرين الثاني ١٣٠٥) جازت تعميرة (اي اسطول) للفرنج على بيروت ولم يتعرّضوا لها وتوجّهوا الى صيدا، واخذوها وقتلوا واسروا جماعةً من اهلها (تاريخ صالح ص ٥٠ــ٥١)

وفي تاريخ بيروت ايضاً لصالح (ص ١٣٨) وكذلك في تاريخ ابن سباط (ص ٢٢ من نسخة مكتبتنا الشرقيّة) ذكر غزو الفرنج الجنويين لبيروت في عيد الاضحى سنة ٧٣٤هـ (آب ١٣٣٤) . وكانت غايتهم ان يأخذوا مركباً للكثلان من اهل اسبانية المتاجرين في بيروت فدافع المسلمون عنهم . قال صالح :

« حضرت شواني الفرنج الجنويين الى بيروت قاصدين اخذ قرقون (١) لطائفة الكثيلان في ايام ولاية عزّ الدين البيدري من قبَل تنكز نائب الشام . وقصد المسلمون منْع الجنوية من اخذ القرقون فقاتلوهم قتالاً شديداً لكنهم لم يقووا على منعهم وقُتل جماعة من الجند والرجال وجُرح بعض الامراء ودخلوا الجنوية الميناء واخذوا الاعلام السلطانية من البرج وقتل جماعة في البرّ وانهزم المسلمون فقاتلهم الجنويّة في الازقّة . ويُذكر انّ القتال استمرّ بينهم يومين »

البحث السابع

وفي أيام الاشرف ناصر الدين شعبان سنة ٧٦٧ (ايلول ١٣٦٥) غزا ملك قبرس هوغو الرابع دي لوسنيان ثغر الاسكندريّة في سبعين مركباً ودخلوا المدينة ونهبوا اسواقها وبيوتها وقتلوا جماعةً من اهلها وحرقوا باب رشيد ثمّ اقلعوا الى جزيرتهم . فارسل

١) القرقون كالقرقور سفينة طويلة تجارية واصل الكلمة من اليونانية

الاتابكي يلبغا العُمَري الاوامر الى الامير بيدمر الخوارزمي بالتوجّه الى بيروت وتجهيز اسطول كبير من غابتها لفتح قبرس قال صالح بن يحيي في تاريخه (ص ٥٢-٥٣) :

« فحضر (بيدمر) الى بيروت واحضر صنّاعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمّاً غفيراً وقيل انهُ لم يُعهَد قطّ عمارةٌ مثلها عظماً وسرعةً وكثرة صنّاع وقوّة عزم . فعمّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبةً وعُرفت بهِ الى اليوم . وكانت المراكب تُعمَل بها على بُعْد من البحر . وحضر عسكر الشام متجرّداً فأنزلوه فيما بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرس لئلّا يحضر العدوّ حين غفلة فيحرقوا ما يُعمَل من المراكب . وكان نائب الشام في ذلك الوقت أقتمر عبد الغني . ولمّا توفي يَلبُغا العُمري في ليلة الاحد العاشر من ربيع الآخر ٧٦٨ (اواسط كانون الاول ١٣٦٦) أُبطلت العمارة المذكورة ولم ينزل من المراكب الى البحر سوى حمّالتين كبيرتين الواحدة باسم سُنقر والثانية باسم قراجا وهما اميران من امراء ذلك الوقت . وكان الامير بيدمر قد استعجل القومَ على عمارتها ليجهّزها فيحضروا صواري وقرايا ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمّرونها . ثمّ بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا . وكذلك تلفت بقية الشواني التي لم تنزل الى البحر تحت المسطبة المذكورة . وكان قد صُرف عليها مال كثير فذهب سدًى لم يُستفَد منها سوى الحديد بعد ما أخذت الناس منهُ شيئاً كثيراً »

والحق يقال ان بيروت كانت في حاجة الى اسطول يردّ عنها غارات القرصان من جنويين وبنادقة وكتلان وبيزان الذين تهدّدوا المدينة غير مرّة وكادوا يستولون عليها . فممّا ذكرهُ المؤرخون نزول الجنويين الى بيروت في السنة ٧٨٤ هـ . وقد روى الخبر صالح بن يحيي بتفاصيلهِ فننقلهُ عنهُ بالحرف لما فيه من الفوائد التاريخيّة ومن اوصاف بيروت في عصر المماليك المصريين التركمان قال (ص ٥٣-٥٥) :

« في العشر الاوسط من جمادى الآخرة سنة اربع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٢م) حضرت تعميرة الجنويّة الى صيداء فاخذتها وجاءت الى بيروت وكانوا سمعوا في دمشق بخبر حضورها الى صيداء . فقال ملك الامراء بيدمر : صيداء ما بقينا نلحقها لكننا نروح لنلحق بيروت . فوافق حضورُ العساكر الشاميّة الى بيروت حضورَ التعميرة فلم يتعرّض اصحابها للنزول الى البرّ وتوجّهت التعميرة الى جهة قبرس والماغوصة

« ثمّ رجع العسكر الى دمشق وتأخر منهُ شرذمةٌ وجماعة من الامراء . . . ثم انّ التعميرة المذكورة آنفاً غابت اياماً قلائل وعاد الجنويّون الى بيروت بعد ان تركوا في الماغوصة بعض مراكب صغار ومراكب نوافذ كسبوها من صيداء وفي طريقهم مع ما كانوا غنموهُ من صيداء . فحضر الى بيروت اثنا عشر غراباً كبيراً ودخلوا الميناء وكان فيها قرقورتان للبنادقة فاخذوهما وشحنوهما بالرجال وقدّموهما حتى تمكّن الرُماة منهم بالجروخ والحجارة من صواريهما على برج بيروت الصغير البعلبكي . ولم يكن في ذلك الوقت بُني البرج الكبير وكان مكانهُ خرائب

قديمة . فرمى الفرنج المسلمين بالجروخ والمدافع فتنحّى المسلمون عن قبالة الفرنج واستتروا بالحيطان فتقدّمت شواني العدوّ الى البرّ ما بين البرج الصغير والخرائب التي كانت مكان البرج الكبير ونصبوا صقالتهم من الشواني الى البرّ . ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدّم من كبارهم وبيده سنجق وصعدوا في الجونة الى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوةٍ اشارةً منهم انّهم تملّكوا البلد . وشرعوا يتزلون من الشواني شرذمةً بعد أُخرى فهجمت فرقة من المسلمين مع الوالد (١ على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق . فلما نظر الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين فحمل منهم ذوو النخوات فانهزم من كان نزل من الفرنج وازدحموا على الصقائل فانقلب جم بعضها فغرق منهم جماعة وقُتل جماعة وانكسروا شرّ كسرة . واستشهد في ذلك اليوم من المسلمين نفرٌ وجُرح جماعة . وكانوا قد كشفوا التعميرة عشيّة يوم وصولها فاشعلوا النار ليلًا اشارةً لوصول الفرنج الى بيروت فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة الى دمشق فحضر يَدَمُر نائب الشام الى بيروت عشيّة يوم الواقعة وتبعتهُ عساكر الشام فكان وصولهم بعد فوات الامر ولم يلحقوا القتال ولم يروا غير الشواني في البحر على بُعدٍ وهي راجعة الى بلادهم

ثمّ خلف المماليكُ البرجيُّون الجراكسةُ على مصر المماليكَ البحريين الاتراكَ سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٤م) فحصل اهل بيروت على الراحة مدّة حتى كانت السنة ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) .

فانّ متملّك قبرس المدعوّ يانوس (Janus I) دي لوسينيان كان قصد ان يسترجع مدينة الماغوصة (Famagouste) من الجنويّة الذين كانوا افتتحوها سنة ١٣٧٢ في عهد بطرس الثاني . قال صالح بن يحيي يروي في تاريخه هذا الخبر بما حرفهُ (ص ٥٥—٥٨) :

« فبلغ الجنويّة ذلك فجهّزوا ليأخذوا منهُ قبرس فاصلح الرّوادسة (اي فرسان رودس) بينه وبينهم على حكم ان يقوم لهم بمائة وعشرين الف دينار في نظير كلفتهم على التعميرة . فتوجّهت التعميرة المذكورة الى العلايا (مدينة على ساحل بحر الروم) فلم يقدروا عليها فتوجّهت منها الى طرابلس وبها دَمُرداش (المحمّدي) نائبًا . فنزل الفرنج الى البر لكنّ المسلمين تكاثروا عليهم ومنعوهم الوصول الى المدينة فرجعوا الى مراكبهم مخذولين بالخيبة . ثم حضروا الى بيروت في العشرين من محرّم سنة ٨٠٦ (١٤٠٣م) فلمّا رآهم اهل بيروت همّوا بترحيل حريمهم واولادهم وامتعتهم فأخليت بيروت من اهلها ولم يكن بها متولٍّ ولا عسكر مجرّد للحرب سوى امراء الغرب ومعهم بعض جماعة . وكان قد توحّش خاطرهم لظنّهم انّ في التعميرة خيولًا فخافوا من ذلك . فنزل الفرنج من الشواني الى البرّ في مكان يسمى الصنبطيّة غربي البلد في الرابعة من النهار وتملّكوا البلد ونهبوهُ واحرقوا الدار التي لنا على البحر والسوق القريبة من الميناء . وصار المسلمون يتجمعون شيئًا فشيئًا وجعل اصحاب النخوات يهجمون على من تفرّد منهم في الازقة فقتلوا منهم جماعةً واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر . وحضر المتولي الامير يوسف التركماني

(١) يريد المؤلف صالحُ بن يحيى والدهُ يحيى

الكسرواني فاقام الفرنج في بيروت الى قرب العصر ثمّ رجعوا الى مراكبهم . وتتبّع المسلمون بقيّتهم

« وفي تلك الليلة توجّهوا الى صيداء وتوجّهنا قبالتهم في البرّ . فلمّا قربوا من صيداء على مسافة دون ميل من البلد نزلوا الى البرّ . وكان قد اجتمع على صيداء العُشران وغيرهم ولم يجسر الفرنج على الدخول الى البلد . . . ثم بعد ذلك اليوم توجّهوا راجعين الى جهة بيروت قاصدين نهر الكلب ليملأوا منهُ ماء . وعيّن ملكُ الامراء الاميرَ الكبيرَ سودونَ الطّريف (نائب الكرك) ليتوجّه قبالة التعميرة ومعهُ امراء الغرب فوجدوا التعميرة متوجّهة الى جهة بلادهم . . . ومن جملة ما نهبهُ الجنويّة المذكورون من بيروت حواصل تجار لفرنج البنادقة بقيمة عشرة آلاف دينار . فبلغ البنادقة ذلك واقتضوا من الجنويّة نظيرها ولزيد . وكان ملكُ الامراء قد رسم لمتولي بيروت ان يقطع رؤوس قتلى الفرنج وان يعمّر على ابدانهم مسطبةً على باب بيروت ويكتب عليها اسم ملك الامراء . وجهّز الرؤوس الى دمشق ثمّ الى مصر فحصل في انفس الذين قتلوا الفرنج غيرةٌ لنسبة المسطبة الى غيرهم فهدموها ليلًا واحرقوا ما كان بها من رمم الفرنج »

فترى من هذه الروايات انّ بيروت كانت معرّضةً اكثر من سواها لغارات العدوّ فما كانت لتستغني عن مراكب حربيّة تصونها من جهة البحر لانها على الرغم من تلك الغزوات لم يزل موقعها مركزًا مهمًّا . وذلك ما حدا سابقًا بالامير سيف الدين تنكز نائب الشام الى ان يبني لها برجًا عُرف ببرج البعلبكيّة (يحيى بن صالح ص ٦١)

ولمّا تعيّن بيدمر الخوارزمي بعدهُ كنائب الشام جدّد سور بيروت على جانب البحر جعل اوّلهُ من عند حارة بني الغرب واوصلهُ الى تحت برج تنكز وجعل بين السور والبرج بابًا وركّب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسُمّي باب السلسلة وعيّن لهُ قومًا يحرسونهُ

وكذلك كانوا اقاموا يَزَكًا اي طلائع في مقابلة العدو وذلك منذ اوائل القرن الثامن للهجرة والرابع عشر للميلاد . قال صالح بن يحيي (ص ٦٢) :

« كانت جنود حلقة بعلبك تتجرّد الى بيروت أبدالًا يبقى كل بدلٍ شهرًا . وفي السنة ٧٠٦هـ (١٣٠٦م) افرزوا التركمان بكسروان وتداركوهم بثلاثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونهُ ان يتعدّى دربند نهر الكلب الّا بورقة طريق اي وثيقة من المتولي او من امراء الغرب وجعلوا التركمان المذكورين ثلثة إبدال كل بدل يقيم في الدرك شهرًا

(قال) وكان الملك المظفر تقي الدين عُمر الايوبي صاحب حماة قد اوقف وقفًا على جماعة خيّالة ورجّالة برسم الجهاد وشرط عليهم بان يكونوا في اقرب الموانئ الى دمشق . فلما استوطن المسلمون بيروت بعد الفتوح الاخير استقرّ إقامة المجاهدين المذكورين بها لقربها من دمشق .

[illegible]

[illegible]

وفي ايام السلطان الملك الظاهر برقوق عُمّر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من ابراج القلعة المخرّبة فقرّروا بهِ المجاهدين المذكورين . ومما قرّروهُ ايضاً لسرعة الدفاع عن بيروت أعلام نارية كانت تنبئ اهل دمشق باخبار بيروت في ليلة . كانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة ومنه الى جبل بوارش في لبنان ومنه الى جبل يبوس بوادي التيم ومنه الى جبل الصالحية فقلعة دمشق فكانت النار للحوادث بالليل وحمام البطاق وهو حمام الزجل السيّار للحوادث في النهار هذا فضلاً عن البريد لنقل الاخبار »

ومع تحصين بيروت اخذ المسلمون يهتمّون بتزيينها بالابنية والدور الواسعة الفخيمة . لاسيما امراء الغرب الذين سيأتي ذكرهم . ومن البنايات التي كان انشأها الامير تنكز في بيروت خانٌ كبير وحمّام وصفهما ناصر الدين حسين بشعر رواهُ صالح ابن يحيي في تاريخ بيروت (ص١٥٤ - ١٥٥)

وبعد خمود التجارة مدّةً في بيروت اخذت سوقها بالرواج . قال صالح (ص٥٩) :

« ثم صارت بعض مراكب الفرنج تتردّد اليها قليلاً قليلاً . وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتين كانتا له الى بيروت نقلةً بعد اخرى . وكان للبنادقة كُنُس ببيروت وجماعة من التجار يسكنون فيها ولهم خانات وحمّامات »

وقد ذكر كتبة الفرنج انه كانت للبنادقة في بيروت كنيسة كبيرة على اسم القديس مرقس شفيع بلادهم . واردف صالح :

« ثم تكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج فجعل عمّالُ الدولة عليها ضرائب الواردات والصادرات وهي تبلغ جملةً كبيرة . وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشرف وشادّ (من مراتب ذلك الزمان) يولّيهم نائب دمشق والمتوفر عن المرتّبات يُحمل الى دمشق »

تلك كانت حالة بيروت في عهد الملوك المصريين المعروفين بالجراكسة . غير ان النكبات التي توالت على الشام في مطاوي القرن الخامس عشر من حروب ومجاعات واوبئة ادّت بهم الى ضنك عظيم وخمول . ثم اخذت القرصان ترصد المراكب القادمة من بلاد الفرنج فتأسر ركّابها وتستصفي بضائعها فلم تعُد تقدم الى سواحل الشام الّا بكل تحرّز واحتراس فزادت احوال بيروت بؤساً . ودامت الحال الى عهد السلطان سليم خان الاول الذي فتح مصر وابطل دولة الجراكسة ثم استولى على الديار الشامية سنة ١٥١٧ فدخلت بيروت كبقية المدن السورية في حوزة ملوك بني عثمان

البحث السابع

اسرة بني الغرب البحتريين في عهد الصليبيين

انّ تاريخ بيروت في عهد مماليك مصر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأخبار أسرة شريفة من الامراء الذين عُرفوا بأمراء الغرب وبفضل واحد منهم حصلنا على تاريخ اسرتهم نريد بهِ صالح بن يحيي . وهو الذي نشرنا تأليفهُ تباعاً في السنتين الاوليَين من مجلة المشرق ثم طبعناهُ على حدة وهو منقول عن نسخة فريدة في خزانة المخطوطات العربية في باريس موسومة بالعدد ١٦٧٠ وعنوانهُ هناك «تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني الغرب»

فأحببنا ان نفرد هنا بحثاً لما رواهُ المؤلف عن اعمال بني الغرب الامراء في عهد الصليبيين اوّلاً ثمّ في زمن ولايتهم على بيروت . نجرد ذلك عن كتابهِ حيث ورد مبثوثاً مشتّتاً فجمعناهُ في هذا الفصل كتتمّة لاحوال عاصمة لبنان في القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر في مدّة حكم المماليك المصريين على سوريّة

﴿ من هم الامراء بنو الغرب ﴾ رفع يحيي بن صالح نسبهم الى الامير ناهض الدولة ابي العشائر بُحتر الذي ينتهي نسبهُ الى تنوخ ومنهُ الى المناذرة ملوك الحيرة اللخميين اللاحق اصلهم بسلالة زيد بن كهلان ثم بقحطان جدّ العرب

كان التنوخيّون اجداد البحتريين قبائلَ نصرانية قبل الاسلام كما اثبتنا ذلك في عدّة مواضع من كتابنا «النصرانية وآدابها في عهد الجاهلية» (راجع الصفحات ٣١ ، ٨٧ ، ١٢٧ الخ) وبقيت تنوخ على دينها زمناً بعد الهجرة الى ان غلب عليها الدين الاسلامي لامتزاجها بالمسلمين وللضغط عليها كما روى المؤرخون ومنهم الطبري

واستوطنت تنوخ بعد الاسلام جهات الجزيرة والفرات والى عَرَبها ينتسب اجداد امراء الغرب . وقد روى صالح بن يحيي (ص ٦٩) انّ احد اجدادهم ابا اسحق ابرهيم كان اميراً بالبيرة (بيرهجك) القريبة من الفرات سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) وذلك في عهد الملك الظاهر ابي الحسن علي احد الخلفاء الفاطميين

وقدم ابن الامير ابرهيم ويسمّى مجد الدولة علياً الى لبنان فولّاهُ ملوك مصر

على معاملة الغرب في الجبل وعلى سواحل الشام . ولعلَّهُ هو الذي كان متوليّاً على بيروت لمّا مرّ بها الصليبيون اوّل مرة سنة ١٠٩٩م قبل فتحهم للقدس الشريف فصالحوهُ ولم يفتحوا المدينــة . وكان الحكم على الشام في تلك السنة للسلجوقيين . ثم فتح الفرنج بعد عشر سنين مدينة بيروت وبقيت في يد التنوخيين امارة الغرب فتحصَّنوا فيها . وكانت معاملة الغرب وقتئذٍ تمتدُّ الى معظم بلاد الشوف الحالي ولاسيما ما يعرف اليوم بنواحي الغرب الاقصى والغرب الاعلى والغرب الشمالي وبعض جهات الشحّار والمناصف وذلك ما يُدعى في مناشير بني الغرب جبل بيروت

وقد اشتهر بعد الامير عليّ ابنهُ بُحتر . ذكر لهُ صالح بن يحيي (ص ٦٧) منشوراً نالهُ من الاتابك مجير الدين آبق بن طغتكين في محرَّم سنة ٥٤٢ (حزيران ١١٤٧) يقرّر فيهِ الامير بُحترًا على امارة الغرب من جبل بيروت بعد ابيهِ

وفي اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ٦٦٥ــ٦٦٦) انَّ بُحترًا المذكور نجا من القتل لمّا استولى الصليبيُّون على بيروت وفتحوهــا بالسيف وقتلوا من كان فيهــا وفي جهات الغرب من الامراء . وكان بُحتر صغير السنّ فخفتهُ أُمّــهُ في عرامون . ثم ترعرع ونشّط حارب الفرنج ونال منهم في واقعة رأس النينة عند نهر الغدير . وكانت وفاتهُ سنة ٥٥٢ﻫ (١١٥٧م) . هذا ما رواهُ الشيخ طنوس الشدياق ولم يذكر اسانيــدهُ في روايتهِ

وخلف بحترًا ابنهُ زهر الدولة ابو العزّ كرامة بن بحتر التنوخي فجرى على مثال والدهِ في محاربة الفرنج فشكرهُ على فعلهِ الملك نور الدين محمود بن زنكي ومنحهُ منشورًا اثبت لهُ فيهِ اقطاعات والدهِ وزاد فيها كما روى صالح بن يحيي (تاريخهُ ص ٧١)

وكانت الدعوة الدرزيّة في تلك الاثناء انتشرت في لبنان لاسيما في وادي التيم وانحاء الشوف بدعوة بعض الباطنيّة اصحاب الحاكم بامر الله الذي ادّعى بالربوبيّــة فتبعهُ كثير من البحتريين امراء الغرب وغيرهم فأُطلق على الاحياء الذين قبلوا دعوة الفاطميّ في وادي التيم اسم آل عبدالله وبهِ دعاهم صالح بن يحيي في تاريخ بيروت (ص ٧٠) امّا دروز صفد فدُعوا آل تُراب (ص ٢٧٩ــ٢٨٠)

وممّا رواهُ صالح في تاريخهِ (ص ٧٤ــ٧٥) وابن سباط من بعده ولم نجد لــهُ ذكرًا في تواريخ الصليبيين انَّ صاحب بيروت الفرنجي ولم يصرّحا باسمهِ والمرجَّح انهُ

المسمى غوتيه سيّد بيروت (Gauthier, sire de Baruth) هــادَنَ اولاد الامير كرامة ولم يزل يجاملهم حتى غدر بهم وقتلهم غيلةً ونهب بلادهم . ودونك الخبر كما رواهُ صالح وابن سباط (ص ١ من نسخة مكتبتنا الشرقية) :

« بعد وفاة زهر الدولة كرامة اقام اولادهُ الثلثة الكبار مقامهُ فهادنهم القيّم مقام الافرنجي صاحب بيروت وآنسهم وتكرّر اجتماعهم معهُ في الصيد وهو يعطيهم ويُحسن اليهم ثمّ دعاهم الى عرس ابنه . فلمّا كان وقت العرس قدم الثلثة الى بيروت فأنزلهم صاحبها في بستان ظاهر البلد واعتذر اليهم لايوائهم خارج البلد لكثرة ما اجتمع فيهِ من طوائف الفرنج لوليمة العرس وزاد في اكرامهم . ولمّا دخل الليل سألهم الحضور الى مجلس خاصّ قد هُيِّئ لهم وللملوك الفرنج فدخل الثلثة الى القلعة ومعهم نفر قليل فكان آخر العهد بهم . وركب صاحب بيروت بمن عندهُ من جموع الفرنج في صبيحة تلك الليلة وطلعوا الى حصن سرحمول الذي كانوا يقيمون فيهِ وكان خاليًا من الرجال فهرب من كان بهِ ومن جملتهم حجى(١ اخو الامراء الصغير وكان عمرهُ سبع سنين هربت بهِ امُّهُ الى الدوير . فنهبت الفرنج الحصن وهدموهُ والقوا حجارتهُ في الوادي ولم يبقوا لهُ اثرًا واحرقوا القرى واسروا من تخلّف عن الهرب»

هذا ما رواهُ الكاتبان ولم يتّفقا في تعيين سنتهِ فانَّ ابن سباط يجعل وقوعــهُ سنة ٥٧٠ﻫ (١١٧٤ــ١١٧٥) امّا صــالح بن يحيي فيقول (ص ٧٥) : «انَّ هــذه الكائنة وقعت في اواخر دولة الملك العادل نور الدين بن زنكي» والملك العادل توفي في شوّال سنة ٥٦٧ﻫ (١١٧٢م) فيكون الفرق بين الكاتبين نيّفًا وسنتين . وزاد الكاتبان انَّ الملك الناصر صلاح الدين لمّا فتح بيروت بعد ذلك سنة ٥٨٣ اُنس رأس حِجى بن كرامة وقال لهُ : «ها قد اخذنا ثارك من الفرنج فطيِّب قلبك وانت مستمرّ مكان ابيك واخوتك» . وكتب لهُ منشورًا في ذلك تاريخهُ «بارض بيروت في العشر الآخر من جمادى الاولى سنة ٥٨٣ (١١٨٧ م)

ولم تبق بيروت زمنًا طويلًا في ايدي المسلمين كما سبق فرجع اليهــا الصليبيّون وثبّتوا فيها سلطتهم وتملّكوها من السنة ١١٩٧ الى ١٢٩١ في عهد الملوك الايوبيين ثمّ المماليك الاتراك على مصر . ففي تلك المــدّة من السنين كان امراء الغرب يحصّنون قراهم في وجه الفرنج ويبنون فيها الابنية الفخمة ممّا بقي بعض آثاره الى يومنــا في

---

١) كُتب هذا الاسم في الاصل «حجي» وقد افادنا الامير شكيب ارسلان ان الصواب «حِجى»

(Gauthier, sire de Baruch)

اعبَيّة وعرامون وعيناب ونواحي الدامور

على انّ ملوك مصر ما كان ليهدأ لهم بال والفرنج بجوارهم في قلب البلاد او يتهدّدون باساطيلهم سواحل الشام فوكلوا الى امراء الغرب ان يقفوا لهم بالمرصاد ويتصدّوا لهم ويعرقلوا امورهم ويلازموا نظر سواحل بيروت . وفي كتابات امراء الغرب الى ملوك مصر والى الامراء عمّالهم تطمينٌ لبالهم يؤكدون لهم صدق خدمتهم ومناهضتهم للفرنج وكانوا اذا حدث امرٌ هامّ يعلمون به ملوك مصر . فانّ الملك الظاهر بيبرس يثني على اميري الغرب زين الدين علي وجمال الدين حجى لهمّتهما في مكاتبته عن احوال سواحل الشام ويشكرهما على ما اخبراه به من امر زواج ابنة صاحب بيروت من ابن ملك قبرس (ص ٨٣و٩٦)

على انّنا نرى مع ذلك في بعض الاحوال انّ المعاملات بين الفرنج وامراء الغرب كانت وديّة لنا على ذلك شاهدان في ما ذكره صالح بن يحيي . وهما المنشوران اللذان اشرنا اليها ورواهما في تاريخه (ص ٨٣—٨٤ و١١١—١١٢) الاوّل لصاحب صيداء رينو (Renaud de Sagette) كتبهُ سنة ١٥٦٧ للاسكندر (١٢٥٦ م) والثاني لهمفري دي مونفور (Humfroy de Monfort) في تاريخ سنة ١٥٩٢ يونانيـة (١٢٨١م)

واخبر في محلّ آخر من تاريخه (ص ٨٧) انّ الامير سعد الدين اخا الامير حجى المذكور كان مولعاً بصيد الطيور الجوارح وان صاحب قبرس الفرنجي (والاصح صاحب بيروت) كان يهديه طيوراً وذلك ما يثبت تلك العلاقات الوديّة بين الفرنج وامراء الغرب

وممّا رواهُ ايضاً عدّة مناشير للملك الظاهر بيبرس (٩٥—٩٨) يوجهها الى اميري الغرب زين الدين علي وجمال الدين حجى الكبير يقرّر فيها اقطاعاتهم ويحسن اليهم . ولعلّ ما نالاهُ من النعمة من قبل السلطان هو الذي حرّك الحسد والبغض في اعدائهم بني ابي الجيش فسعوا بهم ال الملك ظاهر بيبرس وزوّروا باسمهم كتابات الى الفرنج الى صاحب طرابلس فبلّغوها الى الملك بيبرس . فحنق عليهم وارسل فاوقف الاميرين المذكورين وسعد الدين خضر اخا جمال الدين حجى واعتقلهم فحبس الامير زين الدين علي في سجن مصر والامير جمال الدين في الكرك وسعد الدين خضر في قلعة عجلون ولم يقبل فيهم شفاعةً . وبقوا عدّة سنين في حبسهم الى سنة وفاة الملك الظاهر

وبيبرس سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) لم يخرجوا من السجن إلّا في عهد ابنهِ الملك السعيد ناصر الدين بركة (اطلب تاريخ صالح ٩٨—١٠١)

وعاد الامراء الثلثة الى اوطانهم . وتكرّرت الشكوى عليهم الى الملك منصور قلاوون لميلهم الى الفرنج الصليبيين المتملكين على سواحل الشام لاسيما صيداء وبيروت . . فكتب الاميران زين الدين علي وجمال الدين حجى واولادهما الى الملك يتنصّلون من تلك التهمة ويؤكدون خلوص خدمتهم للدولة المنصوريّة ويصرّحون «بانهُ ليس منهم احد يحبُّ الفرنج او يميل اليهم او يناصحهم وانَّ ما نُسب اليهم انما هو تشنيعٌ من اعدائهم ومبغضيهم» (تاريخ صالح ١٠٣—١٠٤) .

البحث الثامن

امراء الغرب في بيروت ١٢٩١—١٥١٥

بقي امراء الغرب في جبلهم الى ان فُتحت بيروت نهائيًا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) على عهد السلطان الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ملك مصر فكان امراء الغرب اوّل من دخلها . . واخصّهم الامراء زين الدين صالح بن علي وجمال الدين حجى وسعد الدين خضر الذين مرّ ذكر اعتقالهم في عهد الملك الظاهر . وفي السنة الثالثة لفتح بيروت ١٢٩٤ استقرّ دركهم على بيروت فاقاموا لحراستها تسعين فارساً قسموهم ثلثة اقسام جعلوهم ابداً لا يقيم ثلثون منهم شهراً ثمّ يعقبهم بدل آخر بالمناوبة تاريخ صالح ٦٣—٦٤) . وفي اثناء ذلك استرجعوا ما كان نُزع عنهم من الاقطاعات (واستبدلوا ما كان لهم منها في جهات طرابلس فجعلوها على درك بيروت (صالح ١٠٩) في زمن سلطنة الملك الناصر محمّد بن قلاوون (١٢٩٣م) . وقد اشتهر اذ ذاك الامير ناصر الدين حسين ابن سعد الدين خضر وهو الذي افاض في وصفهِ صالح في تاريخه (ص ١٢٠—١٢٨) . وقد عُني بأحوال بيروت وحفظ ثغره مع عدّة رجال يساعدونهُ فمدحهُ في ذلك احد شعراء زمانه قائلًا :

أيا ابنَ امير الغرب شرقاً ومغرباً ومَن كلُّ عُرْفٍ غير عُرْفِهمُ نُكرا
بإحسانك المشهور بيروتُ بلدةٌ على الساحل المعمور صار لها ذكرا
تبسّمَ عُجبًا ثغرُها وترنّحت معاطفُها تيهًا وجلّلها البِشْرُ

وكان عليها الكفرُ والشركُ دائمًا ... فُذْ حلّها مولايَ عاد لها الفخر
وعاوَدها أُنسٌ بقُربِ رِكابكم ... ولولاكمُ ما افترَّ يومًا لها ثَغر
بكم قرَّ عينًا للغريب وانّما ... حسينُ بن خُضر ظلّهُ فوقهُ سِتر
هو الناصر المعروف بالجود والتُقى ... لهُ الفضلُ والاحسان والعطفُ والبرّ

وفي السنة ٧٤٣ (١٣٤٣ م) امر الملك اسمعيل ابن الملك الناصر بتجريد فرقة من بني الغرب ليحاربوا معهُ اخاهُ الناصر شهاب الدين احمد الذي خلعه اهل الدولة لسوء سيرتهِ بالرعية. فكان احتلَّ قلعة الكرك وتحصَّن فيها فسار ناصر الدين بمائتين وخمسين رجلًا من بيروت وحاربوا السلطان احمد الى أن نفد ما عندهُ من الطعام فطلب الامان ثمَّ قُتل بالسيف. فعاد ناصر الدين الى بيروت.

وقد اشتهر ناصر الدين خُضر بما شيَّدهُ من المباني في اعبَيه وبيروت. وقد وصف صالح في تاريخهِ (ص ١٥٠—١٥٣) عمائرهُ في اعبيه. اما ابنيتهُ في بيروت فخصَّ بها فصلًا ننقلهُ هنا لافادتهِ قال (ص ١٤٩—١٥٠):

«لمَّا جُمل دَرَك امراء الغرب على بيروت كما ذكرنا واقتسموا ثلثة ابدال اتّخذوا الكنيسة التي شرقي البلد داخل السور (١ فكانت لهم منزلًا وكانت هذه الكنيسة تُعرَف بكنيسة افرنسيك (٢ . ويزعم الفرنج انَّ افرنسيك هذا قدّيس ظهر متأخر من مدّة مائتَي سنة مضت الى هذا التاريخ (٣. وكانت هذه الكنيسة كبيرة فجعلها السَّلَف اسطبلًا (كذا) وجعلوا في اعلاها اطباقًا وهي في وقتنا هذا (٤ بيعت لبني الحمراء (٥ فنقلوا حجارتها الى مدرستهم وذلك بعد العشرة والثمانمائة (١٤٠٧م) وكانت معروفة بالسلف (٦ وهم لم يبرحوا فيها تبدّلًا بعد بدل حتى جرى من الجنوية ما جرى واخذوا قرقور الكتيلان. فكره ناصر الدين الكنيسة لبعدها عن البحر واختار ان يكون مجاورًا للبحر فاتخذ الحارة التي على جانب البحر وعمَّر اطباقًا على الاقبية ودارًا عليها سورٌ فجاءت احسن ما يكون وجعل الاطباق مسجدًا. ولمّا سكنها ناصر الدين بن يضاف اليهِ من بدلهِ استمرَّ بَدَل العَرامونيين (١ في الكنيسة المذكورة. وامَّا بدل العَيانية (٢ ومن أُضيفوا اليهم فاتخذوا لهم الدار المعروفة بدار صاحب بيروت المجاورة للحمّام العتيق... ثمّ بعد استملاك ناصر الدين الحارة الجديدة المذكورة استملك الزقاق المعروف بزقاق الحبّالة وهو من باب الحارة بجهة القبلة الى قرب الحمام العتيق جانبَي الزقاق يمنةً ويسرة»

١) حيث اليوم الجامع المجاور للباب الشرقي القديم ليس بعيدًا عن السراية القديمة

٢) يريد القديس فرنسيس . . بزي منشئ الرهبانية الفرنسيسية وكان للفرنسيسيين في بيروت دير على اسم القديس يوسف امَّا الكنيسة فكانت على اسم المخلص تذكارًا لاعجوبة الصليب الذي سال منهُ الدم بضربة بعض اليهود. وكان الرهبان يسكنون ذلك الدير ويخدمون كنيستهُ في عهد الامراء الصليبيين المالكين لبيروت فخرجوا منها بفتح الملك الاشرف للمدينة سنة ١٢٩١ ثمَّ عادوا الى بيروت بعد مدّة وسكنوا في قسم صغير من ديرهم القديم او بجوارهِ. وقد ذكر السيّاح في اواسط القرن الرابع عشر هذا الدير الصغير وبقيت كنيسة المخلص في حوزة المسلمين راجع GOLUBOVICH: Superiori di Terra Santa, p. 216

٣) توفي القديس فرنسيس سنة ١٢٢٦

٤) اي وقت كتابة تاريخ صالح في اواسط القرن الخامس عشر

٥) كانوا حيًا من عرب البقاع نزلوا عند رأس بيروت

٦) يريد بالسَّلَف امراء الغرب القدماء اي كانت تُنسب اليهم

أمّا حادث الفرنج الجنويين الذي اشار اليهِ صالح فقد جرى سنة ٧٣٤هـ(١٣٣٤م) وقد مرَّ ذكرهُ (ص ٨٦٧) وزاد صالح في تاريخهِ: «انَّ امراء الغرب وتركمان كسروان طلبهم تنكز الى دمشق وحصلت لهم اهانة واذيّة». قال الشيخ طنوس الشدياق في اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ٢٣٥):

«وسجنَهم تنكز فالتمس الامير ساروجا الدمشقي منهُ اطلاق الامير ناصر الدين الحسين من القلعة فاطلقهُ. ثمَّ اطلق باقي الامراء لعدم ثبوت ذنب عليهم وامرهم بالاقامة في بيروت فعمَّر الامير ناصر الدين الدار المتطرّفة على جانب البحر»

وقد ذكر بعض المؤرخين المحدثين سبب غارة الفرنج على بيروت في تلك السنة قالوا انَّ ابن صاحب البنادقة مرَّ ببيروت وتجوّل في شوارعها فاستاء بعض اهلها من فعلهِ وكان بينهم اعمى ضرير فقال لهم: انا اقتل الغلام فتُكفَون شرَّهُ وانّما اطلب اليكم ان تردُّوا عني اصحابهُ. فوعدوهُ ودعوا الغلام الى الجلوس في فسحة امام القيساريّة العتيقة. فلمّا جلس اتاهُ الاعمى ليستعطي وبينما هو يخرج من كيسهِ صدقة وثب عليهِ فخنقهُ قبل ان يتمكَّن اصحابهُ من خلاصهِ. ثم مال المسلمون على رفقتهِ فقتلوا البعض منهم وفرَّ الباقون الى مراكبهم وعادوا الى البندقيّة فاخبروا صاحبها بما فعل البيروتيّون فجهَّز المراكب وارسلها الى فتح المدينة فتمَّ الامر كما روى صالح ابن يحيي

وانّما نرى في هذا الخبر مشكلًا فانَّ القتيل على ما يقال كان ابن صاحب البندقيّة. امَّا المغيرون على بيروت فهم الجنويّون وكان الجنويون معادين للبنادقة.

١) اي امراء الغرب اصحاب عرامون

٢) اي امراء الغرب اصحاب عيناب

[illegible]

... Terra Santa, p. [illegible]

[illegible]

ويا ليت اصحاب هذا الخبر افادونا بذكر السند الذي اعتمدوا عليه .

توفي ناصر الدين سنة ٧٥١ (١٣٥٠م) ثم حارب الجنويون ثغر بيروت سنة ٧٨٤ ه (١٣٨٢م) كما سبق شرحه وكان انتصار المسلمين عليهم بفضل امير الغرب سيف الدين يحيى فنجت بيروت من غيلتهم . وانما بيدمر نائب دمشق لم يعترف ليحيى بحسن صنعه بل اغاظ له الكلام وادّعى انه ممالئ للفرنج واخرج عنه اقطاعه . وقد بيّن ابنه صالح في تاريخ بيروت (ص ٢٣٠ـ ٢٣١) سبب غضب بيدمر على ابيه وروى ايضاً ما ابداه الامراء بنو الغرب من النخوة والشهامة في مقاتلة الجنويين سنة ٨٠٦ (١٤٠٣م) لما نزلوا بيروت ونهبوها . (راجع الفصل السابق)

وكانت قبل ذلك سنة ٧٩١ (١٣٨٨م) ظهرت امانة بني الغرب للسلطان الملك الظاهر برقوق لما حصلت بينه وبين السلطان حاجي منصور منازعات في الملك كان الانتصار فيها للملك الظاهر . ولما حاصر دمشق استدعى اليه امراء الغرب وامرهم ان يقبضوا على الامير باز (ويروى : بار) والي بيروت من قبل السلطان حاجي ويحضروه معهم . فاجابوا الى طلبه وقدّموا له رصاص منجنيق اضرب دمشق كان طلبه منهم وبقوا في خدمته الى ان سار لمحاربة منطاش والعساكر المصرية في شقحب فزحفوا معه ثم انهزموا وهم يظنون ان الملك الظاهر برقوق مكسور فرجعوا الى الغرب ألا ان الجنود المنطاشية حملت عليهم وقتلت كثيرين منهم ونهبوا ما وجدوا لهم في بيروت . ولم تزل امورهم في اضطراب الى ان قُتل منطاش وعادت الامور الى مجاريها وثبت الملك للسلطان الظاهر . وفي اخبار الامراء بني ارسلان (راجع اخبار الاعيان ص ٦٧٢) انّ احد الامراء اسلافهم سيف الدين ابن مفرج ابلى في محاربة منطاش وذويه بلاء حسناً وكسر جيشه فاقرّه السلطان الملك الظاهر اميراً على بيروت والغرب ثم بدى هذا الامير مثل تلك الشجاعة في محاربة الفرنج سنة ٨١٥ه (١٤١٣م) لما حضروا بسفنهم الى سواحل الشام وتهدّدوا بيروت فردّهم الامير وجماعته خائبين (اخبار الاعيان ٦٧١ـ ٦٧٢)

ومما ذكره صالح من الابنية لابيه سيف الدين يحيى في بيروت ايوان بديع مات قبل انجاز رصفه بالرخام وزخرفته سنة ٧٩٠ (١٣٨٨) . وروى انه اجرى الماء الى حارتهم المجاورة للبحر المعروفة به . ووصف كرم ابيه يحيى وما تكلّفه على رفقته لما حج معهم

الى مكة وما صرفه في الهدايا للملوك والامراء وفي ابنيته في اعبيه حتى تخلّفت عليه الديون عند موته فوفاها ابنه فخر الدين عثمان (صالح ٢٤٩) الذي توفي بعد ابيه بزمن قليل سنة ٧٩٦ه (١٣٩٣م)

ومن ابنية بني الغرب في بيروت قصر ذكره ابن سباط في تاريخه (ص ٣٤ من نسخة مكتبتنا الشرقية) قال انّ بانيه هو الامير زين الدين عمر بن عيسى بن صالح التنوخي المتوفى سنة ٨٦٤ (١٤٥٩م) روى عنه انه «كان له عناء في البنيان وهو الذي بنى القصر المشهور في مدينة بيروت وهو كان الى الآن» اعني السنة ٩٢٦ه (١٥٢٠م) وفيها كتب ابن سباط تاريخه في نسبة آل تنوخ

ومما ذكره صالح عن جده زين الدين صالح ناصر الدين حسين انه لما دخل بيروت بعد فتحها بيّض جامعها الذي كان كنيسة للفرنج قال (ص ٥٨ـ ٥٩) :

«لما كان الفرنج مستولين على بيروت كانت جماعة المسلمين قليلة ولا جامع لهم . فلما قدّر الله بنزعها من يد الفرنج استقرّت كنيستهم جامعاً وكانت تعرف عندهم بكنيسة مار يحنا . كان بها صور طلاها المسلمون بالطين وبقي الطين الى ايام الجد (زين الدين صالح) فبيّضه وازال عنه آثار تلك الصور»

وآخر ما رواه صالح حملة بني الغرب مع الجيوش المصرية على قبرس وكان صالح يأمر على غراب وتحت امره نحو مئة رجل وقد فصّل اخبار تلك الحملة في ملحق تاريخ بيروت فرويناها في مجموع مكتبتنا الشرقي (Un dernier écho des Croisades, MFO, I. 307-327)

هذا غاية ما استفدنا من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى عن مآثر بني الغرب في عاصمة لبنان في عهد المماليك الاتراك والجراكسة المصريين الى سنة الفتح العثماني للشام سنة (١٥١٥م)

البحث التاسع

بيروت في عهد الدولة العثمانية

الى واقعة عين داره (١٥١٧ـ ١٧١١)

لما كسر السلطان العثماني سليم الاول شوكة الشراكسة بانتصاره على ملك مصر

[illegible]

(Un dernier écho des

Croisades, MFO, I, 307-337)

[illegible]

قانصوه الغوري في مرج دابق في نواحي حلب سنة ١٥١٦ (٩٢٢ هـ) ثم على خلفه طومان باي ابن اخيه في القاهرة (١٥١٧) ضمّ الى دولة بني عثمان مصر والشام وجزيرة العرب وأسرع الى تنظيم ولاياتها . واذ نظر بلاد الشام في حالة من الفوضى كادت تحوّلها الى خراب يباب أحبّ ان ينهض بها من كبوتها ويعيد اليها شيئاً من رونقها السابق فولّى الامير فخر الدين ابن عثمان بن معن على الشوف والغرب وبعض مقاطعات لبنان لانهُ كان حارب المصريين مع جيوشه ونائبه جان بردي المعروف بالغزالي . وعلى خلاف ذلك اعتقل امراء الغرب لثباتهم على امانة مماليك مصر فبقوا معتقلين في قلعة دمشق ثم في حلب الى ان فدوا نفسهم بالهدايا وعادوا الى مواطنهم .

وكانت نيابة الشام من قبل السلطان سليم للغزالي فاستفحلت سطوتهُ وامتدّ نطاق ولايته على معظم مدن الشام وفلسطين والسواحل ومن جملتها بيروت فحدّثتهُ نفسهُ بالاستبداد في الحكم . ولمّا توفي السلطان سليم وخلفهُ ابنهُ السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠) جاهر الغزالي بالعصيان وادّعى لنفسه الملك وحشد الجند . فارسل سليمان عسكراً لمحاربته فقُتل في قابون قريباً من دمشق وتشتّت اصحابهُ

ثمّ اخذت الدولة مذ ذاك الحين تعيّن نوّاباً على سوريّة بصفة ولاة وقسمتها الى ثلاث ولايات دمشق وطرابلس وحلب وضمّت الى كل ولاية عدّة الوية او سناجق . وكانت بيروت احدى سناجق دمشق العشرة . وكان ولاة دمشق يتناوبون واحداً بعد آخر قلّما يزيد زمن ولاية احدهم على سنة او سنتين حتى بلغ عددهم ١٣٣ والياً في مدّة ١٨٤ سنة . فجرى لسبب ذلك منازعات وتعديات ومظالم لا تُحصى ليسرع الولاة ويجمعوا ما يطمعون فيه من المال قبل استبدالهم فينالوا رضى الباب العالي بوضع الضرائب الباهظة على الاهلين ويحرزوا لانفسهم قسطاً واسعاً منها

وكانت ثلاثة بيوت من الامراء تتقاسم الحكم في لبنان بنو معن وبنو عسّاف وبنو سيفا . وكان بنو معن اوسعهم املاكاً واكبرهم سلطة حكموا على الشوف والغرب وساحل صيداء وبيروت . وحكم بنو عسّاف التركمانيّون على كسروان وامتدّ حكمهم من نهر الكلب الى بلاد جبيل وجهات حماة . واما بنو سيفا فكانوا متولّين على عكّار وحصن الاكراد . وكان اللبنانيّون في شمالي لبنان يُعنون بامورهم تحت نظارة مقدّمين من مواطنيهم كانوا يدفعون للدولة ما يجمعونهُ من الضرائب .

وكثيراً ما حدث بين هؤلاء الامراء مناوشات ووقائع لاسيما الحزبين الشهيرين القيسيين واليمنيين وربّما تداخلت عساكر الدولة في امورهم تارةً مع اولئك وحيناً مع هؤلاء على مقتضى سياستها . واوّل من انقرض من الامراء بنو عسّاف . فتك بآخر امرائهم يوسف باشا سيفا فاستولى على املاكهم هو وبنوه . ولم تطل مدّة بني سيفا فوقع بينهم وبين بني معن وقائع عديدة كانت الدولة عليهم وتعقّب بقاياهم شاهين باشا والي طرابلس فاباد ذكرهم وملك المعنيّون على اقطاعاتهم سنة ١٦٣٧

وكذلك بنو تنوخ امراء الغرب سابقاً فانهم لم يصيبوا بعد الفتح العثماني حظوة وبقوا في حصونهم خاملين ومنقسمين بين قيسيين ويمنيين حتى قام احد انسبائهم علم الدين اليمني وكان تولّى الامر بغيبة الامير فخر الدين المعني الى الاستانة فسار الى مقرّ الامراء في اعبيه فباغتهم بجنوده واغتال بهم فقتلهم عن بكرة ابيهم ولم يفلت منهم احد وذلك سنة ١٦٣٣ ([illegible])

*

وكانت بيروت في تلك الاثناء لا تزال محصّنة بسورها وبرجيها السابق ذكرهما مع السلسلة الممتدة بينها الى قلعتها تزينها الابنية التي شادها امراء بني الغرب وكان السيّاح الفرنج القادمون الى زيارة الاراضي المقدسة يزورونها فيصفونها كمدينة غنيّة ذات تجارة واسعة ويذكرون مرفأها انهُ عميق المياه امين للسفن

أمّا اهل بيروت فكان عددهم قد قلّ الى نحو العشرة الآلاف لما أصابها من الاوبئة . ذكر منها جلال الدين السيوطي في مقامته الطاعونيّة (ص ٦٩ ـ ٧٥) طاعون السنتين ٨٩٧ و٨٩٨ (١٤٩١ ـ ١٤٩٢) الذي عمّ القطرين الشامي والمصري وفتك باهل بيروت فذكّرهم بطاعون سابق وصفه ابن الوردي في رسالته « النبا عن الوباء » (نسخة برلين Ms de Berlin, 8550) روى فيها ما ألمّ ببلاد الشام من نكباته

وفي اوّل العهد العثماني حصل في بيروت غلاء شديد ومجاعة بسبب الحروب واضطراب الاحوال وظهور الجراد حتى غلت اسعار كلّ المأكولات وكلّ الحاجيات كما اخبر حمزة بن سباط في ختام تاريخه سنة ٩٢٦هـ (١٥١٩ م) قال « ان شنبل القمح في بيروت بلغ ثمنهُ ١٥٠ ديناراً »

وكانت بيروت مع ذلك لا تزال تستوقف انظار الطامعين بملكها لوقوعها في

[illegible]

[illegible]



فخر الدين الثاني الكبير (١٥٧٢ – ١٦٣٥)

(عن كتاب ترجمته بالطليانية سنة ١٧٨٧)

وسط البلاد على ساحل البحر بجوار لبنان وهي فرضة دمشق . وبقي مينا بيروت على حالته من الصلاح والامن حتى انهُ في ذلك العهد كان معدوداً من احسن مراسي السفن . فذلك ما أثار مطامع الامراء المعنيين والتنوخيين وبني عسّاف ليبسطوا سيطرتهم على بيروت لاسيما اذ رأوا ولاة دمشق منهمكين في اشغالهم يحرصون على حفظ منصبهم مع قصر ولايتهم . وربّما كانت تقع الحروب بين الولاة الثلثة الشام وحلب وطرابلس فيقطعون بيروت للامراء الموالين لهم وانصارهم في حروبهم وانما بقيت مدّةً تحت حكم امراء الغرب

«امراء بني عسّاف في بيروت» ولما ضعفت اسرة التنوخيين بما دهمها من النكبات في القرن السادس عشر الى ان فتك بهم علم الدين اليمني صار الامر على بيروت لبني عسّاف . وكان هؤلاء الامراء التركمان منذ عهد مماليك مصر مستولين على كسروان وبعض سواحل الشام ثم ثبّتهم السلطان سليم الاول في املاكهم وحكّمهم على كسروان وبلاد جبيل لمحاربتهم مع جنوده ضدّ الدولة المصريّة . وكانت وفاة الامير عسّاف كبيرهم سنة ١٥٢٣ . فتولّى من بعده ابنهُ الامير حسن بامر والي دمشق لكنَّ اخاهُ قايتباي حسدَهُ على الولاية ولم يزل يترصّدهُ حتى اوقع بهِ وباخيهِ حسين فغدر بهما اذ سارا يوماً الى بيروت . ومات قايتباي سنة ١٥٣٣ فخلفهُ المنصور ابن اخيهِ الحسن فعظم شأنُهُ وسعى بتوسيع نطاق امرتهِ حتى امتدَّت ولايتهُ على كل الساحل من بيروت الى البترون ثم الى جهات لبنان الشماليّة حتى حدود حماة قرّرها لهُ السلطان سليم الثاني سنة ١٥٧٢ فصار لهُ عليها الحلّ والربط يولّي عليها من يشاء . وحارب الامراء بني سيفا فغلبهم وكان جعل مقرّه في غزير وادخل في خدمتهِ المشائخ آل حبيش . وترك آثاراً مشكورة من ولايتهِ التي بلغتِ ٤٧ سنةً فتوفي سنة ١٥٨٢ . ولم تطل بعدهُ ولاية بني عسّاف فان محمّد ابن الامير منصور قُتل بعد عشر سنين (١٥٩١) كمَنَ لهُ عدوُّهُ يوسف باشا سيفا في مضيق المُسَيلحة قريباً من بترون فاغتالهُ فمات ولم يعقب وبهِ انقرضت سلالة بني عسّاف واستولى يوسف باشا سيفا على املاكهِ في جهات طرابلس ولم تطل مدّة ولاية بني سيفا كما سبق

«بنو معن في بيروت» وكان نجم بني معن يزداد سطوعاً فبعد وفاة الامير فخر الدين الاوّل ابن عثمان الذي كان دعاهُ السلطان سليم الاوّل بسلطان البرّ فأولى

لبنانَ وسواحلهُ اماناً ورقياً سنة ٩٥١هـ (١٥٤٤م)٠ خلفهُ ابنهُ الامير قرقماز فلم يبلغ من الجاه والسلطة ما بلغهُ ابوهُ٠ وفي ايامهِ أقطعت الدولة بيروتَ الاميرَ منصور عسّاف فتولّاها مدةً وبنى لهُ فيها قصراً جميلاً وبنى بقربه جامعاً نُسب اليهِ وشيّد دار ولايتها

وكانت وفاة الامير قرقماز سنة ٩٩٣هـ (١٥٨٥م) وهو مختفٍ في مغارة جزين من وجه الدولة فراراً من ضرائبها الباهظة وخلّف ولدَين الاميرَين يونس وفخرالدين ضمَّهما اليهِ خالهما الامير سيف الدين التنوخي وسلّمها بعد حين ولايتها في الشوف

ولكليهما اخبار واسعة ومآثر جليلة ووقائع عديدة مع ولاة الدولة والامراء المجاورين لهم٠ وقد اشتهر خصوصاً الامير فخر الدين الذي عُرف بالكبير٠ فهذا كان مولدهُ سنة ١٥٧٢٠ ترّبى بعد وفاة والدهِ في كسرون في ضمانة بيت الخازن ثمّ خلف اباهُ في ولاية الشوف٠ وهو الذي مدّةَ نحو اربعين سنة ألفَت اليهِ انظار مواطنيهِ واستولى على قسم كبير من بلاد الشام وجنّد الجنود وتصدّى لولاة الدولة فغلبهم٠ فسارت بذكرهِ الركبان حتى عرفهُ القاصي والداني بل تجاوزت اخبارهُ البحار فاصبح اسمهُ في بلاد الفرنج مرادفاً لبطل الشرق وسلطان الشام ومحامي النصارى٠ وكان بين حاشيتهِ منهم رجال فضل وذكاء لاسيا من مشايخ آل الخازن وكان كاخيتهُ ابا نوفل نادر الخازن

وكانت بيروت في جملة البلاد الواقعة تحت حكم الامير فخر الدين الكبير فخصها بعنايتهِ وأعارها نظرهُ لترقية امورها المادية والادبية فرمم ما خرب من ابنيتها وعُني بتحصينها وتشجير غابة صنوبرها القديمة وابتنى لها جامعاً يُعرف الى اليوم باسمهِ واتخذها كدار سكناه ومقام عزهِ ورونق دولتهِ فبنى فيها الدور الرحبة والمعاهد البهجة والجنائن الغنّاء٠ ومن مبانيهِ برج الكشّاف الذي بقي الى اواخر القرن الماضي فهدم واقيمت في مكانهِ الحوانيت والمقاهي٠ وبنى الخان المعروف بخان الوحوش ثمّ الحمّامات والاسواق والفنادق

وكان تحت يدهِ مهندسان ايطاليّان اسمها تشيولي(Cioli) وفانـي (Fagni) كانا يتوليان هندسة تلك المباني على طراز بديع فاصبحت بيروت بها مزدانة برونق جديد كان يستوقف انظار القادمين اليها من السيّاح٠ وكانت سوق التجارة في ايامهِ

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

رائجة ايَّ رواج. وكانت السُّفن الاوربيَّة الفرنسويَّة والايطالية والهولنديَّة تنقل الى بيروت محصولات البلاد الغربيَّة وتستعيض عنها بخيرات البلاد الشرقيَّة لاسيما الحرير والمنسوجات الوطنيَّة والغلّات الوافرة. وانَّما اساء اليها والى المدن الساحليَّة اذ جنح الى رأي من اشار اليهِ بان يطمَّ ميناءها ليمنع اعداءَهُ عن دخولها ففعل ذلك في بيروت وصيداء وعكّا. فكان هذا من بعدهِ احد اسباب انحطاط التجارة في سواحل الشام الى القرن التاسع عشر. وفي ايامهِ بنى الامير منذر التنوخي جامعاً يُعرف باسمهِ الى اليوم

وبنى الامير فخر الدين للفرنسويين خاناً في صيداء احتلَّهُ قناصلهم وتجارهم. وامضى معاهدة مع تجار فلورنسة فاتَّخذوا لهم مخازن واسعة واقاموا لهم قناصل. فكانت هذه المعاملات الودّية داعياً لهُ الى ان يلتجئ الى غراندوقة فلورنسة قزما الثاني من سلالة ماديشيس سنة ١٦١٣ لما ضايقهُ اعداؤُهُ وجيوش الدولة المرسلة لمحاربتهِ. فابحر الى ايطالية وبقي في ضيافة امير فلورنسة مدَّة خمس سنوات حتى تمكن من العود الى وطنهِ فاستأنف اعمالهُ في ترقية وطنهِ والدفاع عنهُ بالاستحكامات وتشييد القلاع. وكان في خدمتهِ جيش من السُّكبان وغيرهم المتجندين بالاجرة بلغ عددهم على ما قيل الى نحو ١٠٠،٠٠٠ لولا انَّ الدولة لم تزل تترصَّدهُ واسترابت بنيَّتهِ في طلب السلطنة فلم تزل تمدُّ ولاتها بالجيوش البريَّة والبحريَّة حتى قبض عليه احمد كجك سرعسكرها في قلعة جزّين فقُتل الامير يونس اخوهُ وأُرسل هو مغلولاً مع اولاده الى الاستانة حيث قُتلوا بامر السلطان مراد الرابع ولم ينجُ من اولاده الاربعة الّا صغيرهم الامير حُسين فعُفي عنه (٣ نيسان ١٦٣٥م)

وكان ابن اخي الامير فخرالدين ملحم بن يونس نجا من أسر أحمد كجك واختفى في جبل الشيخ حتى سنحت لهُ الفرصة فعاد الى ولاية عمّهِ فخر الدين بمناصرة محازبيه القيسيين سنة ١٦٣٦ فحكم على بيروت وسواحل الشام مدَّة عشرين سنة وتوفّي في صيداء سنة ١٦٥٨ اودت بحياتهِ حُمّى خبيثة. وقام بالامر بعدهُ ولداهُ الاميران احمد وقرقماز الّا ان محمَّد باشا الارناؤوطي تعقَّبهما بامر الصدر الاعظم محمَّد كوبرلي فقُتل قرقماز سنة ١٦٦٢ غدرَ به حاكم صيداء محمَّد باشا. امّا احمد اخوهُ فاشتدَّ ساعده وحارب اليمنيَّة فانتصر عليهم في حي بيروت المعروف ببرج القلغول سنة ١٦٦٤

واستمرَّ في حكمهِ آمناً الى سنة وفاتهِ ١٦٩٧ فمات دون عقب وانقرضت بموتهِ سلالة بني معن

وكانت الدولة اخذت منذ السنة ١٠٦٧هـ (١٦٥٦) تعيّن ولاةً لبيروت وصيداء معاً ليقهروا الامراء الوطنيين. كان اوَّلهم محمَّد باشا الارناؤوطي المذكور ثمَّ قبلان باشا دفتر دار صيداء ثمَّ محمَّد باشا والي صيداء. ثمَّ أُفرزت بيروت عن صيداء فدبَّرها ولاة عثمانيون الى سنة وفاة الامير احمد المعني فسمح الوالي لاهل لبنان ان ينتخبوا بعض الشهابيين عوض المعنيين لقرابتهم من بني معن. فوقع الاختيار على الامير بشير الشهابي وهو المعروف بالامير بشير الاول فاستولى على الولايات التي كانت تحت حكم المعنيين الممتدَّة من جهات صفد الى نواحي الجبَّة شمالي لبنان. ومما اشتهر به الامير بشير الاول انَّهُ قاتل في جانب الدولة الشيخ شرفَ الدين المتوالي صاحب بلاد بشارة فكسرهُ وقادهُ اسيراً الى والي صيداء وضمَّ بلادهُ الى ولايتهِ. توفي الامير بشير في صفد السنة التاسعة من ولايتهِ (١٧٠٧)

وخلفهُ الامير حيدر فحكم البلاد من السنة ١٧٠٧ الى ١٧٣٠. وهو الذي حارب اليمنيَّة وانتصر عليهم في واقعة عين داره الشهيرة فاستأصل شأفتهم في السنة ١٧١١ بعد ان كانت قويت شوكتهم لاسيما بيت علم الدين فكان علي بن علم الدين ويوسف علم الدين وآلهما يسكنون بيروت ويتصرَّفون بامورها بصفة كونهم خلفاء بني الغرب. فصار بعد كسرتهم الحكم للشهابيّين دون منازع

النصرانيَّة في بيروت بعد الفتح العثماني (١٥١٦–١٧١١)

كانت النصرانيَّة في بيروت عند فتح السلطان سليم الاوَّل لبلاد الشام في اسوإ حال. وانَّما كان بقي فيها عيال يسيرة من الروم الملكيين ومن الموارنة. لكلتا الطائفتين كنيستها

هذا ما خلا كنيسة الرهبان الفرنسيسيين وهي كنيسة المخلص التي سبق صالح ابن يحيى فقال عنها انّ الامراء بني الغرب احتلّوها وحوّلوها الى اسطبل وباعوها الى بني الاحمر ثمّ سكنها امراء الغرب العرامونيون . والظاهر انّ الرهبان الفرنسيسيين لمّا عادوا الى بيروت في اوائل القرن الخامس عشر ابتاعوها وجدّدوا عمارتها فكان يتردّد اليها التجار الاوربيون لاسيما البنادقة والجنويون

وكان (للروم الملكيين) في هذه الحقبة اساقفة في بيروت يتولّون شؤون أمّتهم (١ وهذه اسماء الذين عُرفوا منهم : الاوّل يواكيم بن جمعة البيروتي دبّر كرسي بيروت احدى عشرة سنة (١٥٣٢—١٥٤٣) ثمّ أُقيم بطريركاً انطاكيا وتوفي في دمشق سنة ١٥٧٦ كان مائلاً الى الاتحاد هو وطائفته مع رومية وكتب رسالة الى اساقفته ينهاهم عن ان يدعوا الافرنج هراطقة وعن الافتراء على البابا

الثاني اثناسيوس رئيس دير مار سمعان العجائبي الواقع في شرقي قرية بسارين شرطنهُ سلفهُ البطريرك يواكيم على كرسي بيروت فاقام في بيروت عدّة سنين ثم توفي

الثالث برثانيوس خوري قرية كسبا سقّفهُ على بيروت البطريرك يواكيم بن زيادة المتوفى سنة ١٦٠٣ . اقام مدّة طويلة وتوفي في دير كفتون

الرابع يواكيم رئيس دير البلمند من قرية قطيفة خلف برثانيوس متشرطناً من البطريرك افتيميوس كرمه . توفي في بيروت بعد ان اقام مدّة في تدبير ابرشيّتهِ

الخامس الخوري يواصف البيروتي شرطنهُ البطريرك افتيميوس الصاقزي المصوّر اقام عدّة سنين وتوفي في طرابلس

السادس الخوري فرح من قرية ايلات في بلاد عكّار شرطنهُ البطريرك مكاريوس ابن زعيم الحلبي ودُعي فيلبوس سنة ١٦٥١ . ومن آثاره انّهُ انشأ مكتبةً عربيّةً في قلّاية مطرانيّة بيروت واقام زمناً طويلاً وتوفي في بيروت . وقد وقّع سنة ١٦٧٣ على قرارٍ حرّرهُ البطريرك ناوفيطوس تفنيداً لأضاليل اشياع كلوينوس كما ورد في كتاب ثبات الايمان لأرنولد (Perpétuité de la Foi, *Migne II*, *1248-1257*)

السابع مكاريوس شمعة من رهبان مار الياس المحيدثة واصلهُ من بكفيا في زمن

١) ذكرناهم في مقالة خاصّة في المشرق (٨ [١٩٠٥] : ١٩٧—١٩٩) نقلاً عن احد مخطوطات مكتبتنا الشرقية للمقدسي عبدالله طراد البيروتي

قنصليّة ابي نوفل الخازن على بيروت . شرطنهُ البطريرك المستعفي ناوفيطوس في طرابلس وتوفي في بيروت

الثامن سلبستروس البيروتي من بيت الدهان كان رئيساً على دير مار الياس المحيدثة شرطنهُ البطريرك كيرلّس الخامس سنة ١٦٨٠ كان احد منشئي الرهبانيّة الحناويّة الشويريّة وكان كاثوليكيًّا غيورًا توفي سنة ١٧١٣

هذا ما وقفنا عليهِ من اسماء اساقفة الروم الملكيين في بيروت في القرنين السادس عشر والسابع عشر . امّا اخبارهم واعمالهم فلا نعرف منها شيئاً الّا انهم كانوا مقيمين في بيروت

امّا اساقفة بيروت (الموارنة) فلم يذكر منهم البطريرك الدويهي في تاريخه سوى ثلاثة اساقفة الاوّل يوسف (ص ١٧٥) الذي سامهُ البطريرك ميخائيل الرزّي على بيروت سنة ١٥٧٧ . والثاني يوسف الشامي (ص ٢٥٢) سامهُ البطريرك الدويهي على بيروت في ٢٧ ك٢ سنة ١٦٩١ وتوفي سنة ١٧١٥ . وكأنّ هذا الاسقف استعفى فاقام الدويهي اسقفاً على بيروت جرجس خيرالله اسطفان الغوسطاوي مؤسس دير عين ورقة سنة ١٦٩٨ قبل وفاة سلفهِ . توفي سنة ١٧٣٣

ولم يُقم هؤلاء الاساقفة في بيروت وكانوا كمعظم اساقفة الموارنة ما خلا قبرس وحلب يقيمون بجوار البطريرك في قنوبين ولعلهم كانوا يزورون رعاياهم من وقت الى آخر

امّا (الرهبان الفرنسيسيون) فكان ديرهم في بيروت عامرًا يُعنَون خصوصاً بخدمة الفرنج المستوطنين في المدينة للتجارة . وفي اخبار الرهبانيّة الفرنسيسيّة انّ عددهم بلغ الى ثمانية رهبان . وكان ديرهم منوطاً بروساء الاراضي المقدّسة في القدس الشريف . وقد ذكر الدويهي (ص ١٤٦) من رؤسائهم على دير بيروت الاب بطرس الفلورنسي الذي على يدهِ طلب البطريرك شمعون الحدثي التثبيت من البابا لاون العاشر سنة ١٥١٣

واشهر منهُ الاب فرنسيس سوريانو الذي ترأّس على جميع الاراضي المقدّسة مرّتين سنة ١٤٩٣ و ١٥١٢ . وصار رئيساً على دير بيروت دفعتين ايضاً سنة ١٤٨٠ و ١٥١٤ وقال الدويهي في تاريخه انهُ لمّا انتهت ايام رئاسته على بيروت سنة ١٥١٥ رجع الى

[illegible]

(Perpétuité de la Foi, Migne II, …) [illegible]

[illegible]

بلاده (ص ١٤٧) . وكان هذا الاب قد تعيّن من الحبر الاعظم كقاصد رسولي لدى الموارنة فشهد للموارنة تمسّكهم بالامانة المستقيمة

وقد وقفنا على كتابه الذي ألّفه عن الاراضي المقدّسة وعن الشرق (Trattato di Terra Santa e dell'Oriente) نشره حضرة الاب غولوبوفتش سنة ١٩٠٠ في ميلانو وفيه كلام واسع عن بيروت ومرافقها . وذكر فيها ما عدا كنيسة المخلّص كنيستين أخريين شرقي المدينة خارجاً عنها الواحدة على اسم الشهيدة القديسة بربارا وقد اطنب في اكرام اهل بيروت لمقامها وذكر عجائبها مع المسلمين والنصارى (ص ١٦٢) . وانّما انتزع المسلمون هذه الكنيسة من النصارى واتخذوها جامعاً باد اثره مع مدى الزمان ، والاخرى كنيسة القديس جرجس المعروفة اليوم بجامع الخضر (ص ١٦٢—١٦٣)

امّا كنيسة المخلص فقد اتّسع الاب سوريانو في وصفها (ص ١٥٦—١٦١) وعدّد الآيات التي كانت تجري فيها ، من جملتها اعجوبة سبّبت ارتداد كثيرين من المسلمين الى النصرانيّة اذ تفجّرت نيران من اخدود بقرب تلك الكنيسة بفعل احد المغاربة الباحث عن الكنوز فالتهمت شخصين نزلا الاخدود طمعاً بالكنوز فبقي الشخصان ميتين في الاخدود ولم يستطع احد اطفاء النار واستخراج الجثتين الى ان دُعي رهبان الدير فرشّا الماء المصلّى واطفأاها واستخرجا الجثتين فدُفنتا . هذا ما رواه الاب سوريانو ولم نجد له ذكرًا في غير كتابه والله اعلم

ولمّا كانت السنة ١٥٧١ حارب السلطان سليم الثاني البنادقة وانتزع من يدهم جزيرة قبرس فطُرد البنادقة من مدن تركيا ونُفي الرهبان الفرنسيسيّون بسببهم من بيروت وحوّل المسلمون كنيستهم الى جامع يُعرف اليوم بجامع السراية لقربه منها . ولمّا رجع الرهبان الفرنسيسيّون الى المدينة بعد عدّة سنين سكنوا في محلّ آخر قريباً من المينا عند سوق البياطرة ثبتوا فيه الى السنة ١٨٨٣ فانتقلوا الى ديرهم الجديد على طريق النهر في حيّ الجمّيزة

وممن احتلّ بيروت من الرهبان في القرن السابع عشر الآباء المرسلون الكبوشيّين فتحَ ديرهم سنة ١٦٢٦ الاب ادريان دي لابروس (Adrien de la Brosse) . امّا اليسوعيّون فلم يكن لهم دير في بيروت وانّما كانوا يسكنون دمشق وطرابلس وصيداء ويقصدون بيروت لإقامة بعض الاعمال التقويّة كالوعظ والارشاد . وكانوا

يحلّون ضيوفاً على الآباء الكبوشيين وفي ديرهم توفي احد رؤسائهم الاب جان اميو (J. Amieu) في ٦ ت ٢ سنة ١٦٥٣ فدُفن عند باب كنيسة مار جرجس الروم

وقد كان وجود هؤلاء الرهبان المرسلين في بيروت باعثاً لنموّ روح الدين بين الكاثوليك ولارتداد قسم من الروم الاورثذكس الى الكثلكة

وممّا زاد في ازدهار النصرانيّة في بيروت في القرنين السادس والسابع عشر تولّي فخر الدين المعني على سواحل الشام فان هذا الامير كما سبق القول كان محبًّا للنصارى وبين حاشيته قوم منهم . واختصّ بيروت بعنايته واهتمّ بتحسينها وترويج اعمالها رغّب المسيحيين في سكناها فكانوا يقصدونها من لبنان ومن داخليّة البلاد فراجت بهم الصناعة والتجارة . قال الدويهي في تاريخه (ص ٢٠٥) :

«وفي ايام فخر الدين ارتفعت رؤوس النصارى وعمّروا الكنائس وركبوا الخيل ولفّوا شاشات بيضاً وكروراً ولبسوا طوامين (١ وزنانير مسقطة وحملوا القسيّ والبنادق المجوهرة . وقدم المرسلون الفرنج وسكنوا الجبل وكان اكثر عسكره من النصارى ومدبروه وخدمه موارنة»

بل ذهب البعض بأنّ الامير فخر الدين تديّن بالنصرانيّة . روى ذلك الاب هيلار دي برانتون (٢ قال « انّ الامير أُصيب بمرض عضال فعُني بامره الاب الكبوشي ادريان دي لابروس نشفاه فتنصّر واعتمد سرًّا من يده وذلك سنة ١٦٣٣» . واخبر انهُ لمّا قبض عليه الاتراك واخذوه اسيرًا الى الاستانة وحُكم عليه بالموت تذرّع باشارة الصليب فقُتل ككافر (١٦٣٥م) . وقد نشر سابقا في المشرق (١٨ [١٩٢٠] : ٥٤٥—٥٤٦) جناب الكاتب المدقّق عيسى افندي اسكندر المعلوف كتاباً للمطران يوحنا الحصروني كتبهُ الى الامير يؤيد فيه رأي تنصّره نقله حضرة الاب قسطنطين الباشا عن سجلات مدينة فلورنسة (تحت رقم ٢٤٧٦)

وقد تعزّزت النصرانيّة في بيروت في القرن السابع عشر باقامة قناصل وطنيين لفرنسة في ثغرها . وكان اوّل من نال هذا الامتياز الشيخ ابو نوفل نادر الخازن سنة ١٦٦٢ بواسطة المطران اسحق الشدراوي الذي رحل الى باريس (٣ ونال هذه الرتبة

١) الكرور مناديل شاش . الطوامين جمع طومان لفظة تركية معناها السراويل الواسعة

2) Hilaire de Baranton: La France Catholique en Orient, p. 159-164

٣) اطلب تفاصيل رحلته في المشرق (٢ [١٨٩٩] : ٩٢٩—٩٤٤)

من مكارم الملك لويس الرابع عشر وقد ساعدهُ المرسلون اليسوعيّون لنوال النعمة المطلوبة بثنائهم على ابي نوفل . فتولى هذا رتبتهُ السامية الى سنة وفاته ١٦٧٩ . ثم خلفهُ في منصبه ابنهُ الشيخ ابو قانصوه فيّاض بن نادر فتوفي سنة ١٦٩٦ . ثمَّ حفيدهُ الشيخ حصن بن فيّاض الخازن تولى تدبير قنصليَّة فرنسة من السنة ١٦٩٧ الى موته سنة ١٧٠٧ . فتبعهُ في منصبه ابنهُ الشيخ نوفل بن حصن سنة ١٧٠٨ فطالت مدَّتهُ الى ١٧٥٣ وفيها كانت وفاتهُ

فكانت رتبة القنصليَّة الممنوحة لاحد اعيان النصارى الوطنيين مع امتيازاتها وحقوقها وتأييدها من الباب العالي من اعظم الاسباب لعلوّ شأن النصرانيَّة في بيروت . ويدلُّ على ذلك فرمان همايوني منحهُ السلطان سليم الثاني ابا نوفل يحيل الى عهدتهِ مقاطعات كسروان وبكفيا وغزير (الدويهي ٢٤٢–٢٤٣) وارسل اليه البابا اقليميس العاشر براءة يثني فيها على همَّته وتقاه (الدويهي ٢٤٣) وكان البابا اسكندر السابع سبق واكرم عليه «بكافيلاريَّة رومية وبأن يتقلد طوقاً وسيفاً ويستعمل مهاميز من ذهب» (الدويهي ٢٤٧) . وقد ذكر الرحّالة الفرنساوي دي لاروك انَّ ابا نوفل كتب تاريخ الامير فخر الدين معن وما جرى في ايَّامه من الحوادث . وهو اثر جليل طمسهُ الدهر

وقد نشر المرحوم رشيد الشرتوني (ص ٢٤٦ من تاريخ الدويهي) رسالةً للسفير الفرنسوي لدى الباب العالي المركيز دي نوانتل وجَّهها الى ابي نوفل والى امير درعون نسيبه يمدحهما فيها ويشكرهما على حُسن عنايتهما بالمرسلين اليسوعيين

وممَّا وقع في بيروت مدَّة الحقبة التي نحن في صددها من الاحداث المؤلمة استيلاء اهل المدينة المسلمين سنة ١٥٧٠ على كنيسة الموارنة التي في ضمن سورها اغتصبوها وجعلوها قيصريَّة . قال الدويهي (ص ١٧٣):

«فلم يبق للطائفة الّا كنيسة مار جرجس خارج المدينة فاجتمع ابو منصور يوسف بن حبيش مع مشايخ بيت الدهان (الاورثذكس) واتفقوا على ان تشترك طائفة الروم وطائفة الموارنة في كنيسة مار جرجس التي للموارنة خارج بيروت . وفي كنيسة السيدة التي للملكيَّة داخل المدينة»

أمّا كنيسة مار جرجس المذكورة هنا فكانت قريبة من نهر بيروت في المكان

الذي يروي التقليد انَّ عندهُ قَتَلَ مار جرجس التنين . بقيت في ايدي الموارنة الى السنة ١٦٦١ وفيها تعدَّى علي باشا الدفتردار على هذه الكنيسة فاخذها وجعلها جامعاً (الدويهي ٢٣٦) يُعرف في يومنا بجامع الخضر

هذا غاية ما عرفنا من احوال النصرانيَّة في بيروت في هذه المدَّة

البحث الحادي عشر

بيروت في عهد الشهابيين الى موت الجزّار (١٧١١–١٨٠٦)

تتبَّعنا اخبار بيروت حتى اوائل عهد الشهابيّين الى موقعة عين دارة التي فيها تمَّ الفوز للامير حيدر الشهابي ودارت الدورة على الحزب اليمني بتغلُّب الحزب القيسي وسقوط بيت علَم الدين الذين قُتل منهم خمسة امراء في عين دارة كانوا كالعقبة الكؤود في سبيل سلام لبنان وكشجاً في حلقهِ لم يُنتزَع . وتوطيداً لهذا السلام اقتسم الامير حيدر مقاطعات لبنان بين مناصريهِ القيسيّين فولَّى الامراء اللمعيّين على المتن والتلحوقيين على الغرب الاعلى والنكديين على الناعمة وآل القاضي على جزين واطلق على كل هؤلاء اسم المشايخ . وخُذل بانتصار القيسيين ولاةُ الدولة التركيَّة الذين كانوا في جانب اليمنيّين وعادوا الى مراكز ولايتهم في دمشق وصيداء وطرابلس حكم الامير حيدر على الشوف وسواحل لبنان وابتنى لهُ قصراً في بيروت . وقد شكر الناسُ عدلهُ وخافهُ اعداؤهُ لاسيما بعد انتصارهِ على مشايخ المتاولة سنة ١٧١٨ . وفي السنة ١٧٢٩ اعتزل عن الحكم متنيباً عنهُ ابنهُ الامير ملحم الذي خلفهُ بعد وفاتهِ سنة ١٧٣٠ وجرى على آثار ابيهِ بحسن تدبيرهِ وببأسهِ وشدَّة بطشه بمن يخالفهُ فكان لا يعفو عن ذنب وهو الذي غلب والي دمشق اسعد باشا العظم وضمَّ بعلبك الى ولايتهِ . ولمَّا رأى ما يثيرهُ اللبنانيُّون من الفتن عدل الى سياسة تقسيم كلمتهم . وظهر وقتئذٍ الحزبان الشهيران اليزبكي كان زعيمهُ عبد السلام العماد ابن يزبك والجنبلاطيّ يرئسهُ الشيخ علي جنبلاط . وفي زمنهِ انقضَّت صاعقة على قلعة بيروت فخربت جانباً منها فاصلحهُ الامير

وفي السنة ١٧٥٤ تنزَّل الامير ملحم عن ولاية البلاد لاخوَيه الاميرين احمد

ومنصور وسكن بيروت الى سنة وفاته ١٧٥٩ . فحكم الاخوان مشتركين الى السنة ١٧٦٢ ثم وقع بينهما خلاف أدى الى حرب انتصر فيها الامير منصور فاستقل بالحكم الى السنة ١٧٧٠ . وفيها رأى ان الامير يوسف ابن اخيه ملحم كان قد شبّ وقويت شوكته وحاول وضع يده على ولاية والده فسبقه الامير منصور نجاة من صولته وتخلّى له عن الحكم امام اعيان البلاد في الباروك وتوطّن هو بيروت الى ان مات فيها حتف انفه سنة ١٧٧٤

حكم الامير يوسف ابن ملحم على لبنان وبيروت ثماني عشرة سنة قضاها بضروب المحن فحارب المتاولة في جبل عامل وانتصر عليهم بيد كاخيته الشيخ سعد الخوري. ثم اثار عليه الفتن اخواه سيد احمد وفندي وخاله اسمعيل ففتك بهم

وممّن قضي عليه محاربته ظاهر العُمَر وكان هذا شيخاً عربيا من قبيلة بني زيدان الساكنة في فلسطين وكان ابوه عمر عاملاً في اول الامر للامير الشهابي بشير الاوّل فخدمه براقبة الشيعيين في صفد وبلاد بشارة واشتهر بنشاطه وشجاعته وشدّة شكيمته وكان يحسن المعاملة الى النصارى واستعان في خدمته بابراهيم الصبّاغ . ولما توفي الامير بشير سيده استقلّ بالامر ووسّع نطاق حكمه ثم قام ابنه ظاهر بعده فساعده الزمان فدخل عكّا ، وانقذها من ظلم الاتراك وبلّغ حدود ولايته الى يافا جنوباً وحيفا شمالاً وهو يؤدي للدولة الضرائب المطلوبة فتغض الطرف عنه حتى جرى بينه وبين ولاتها نفور . وكان الامير علي بك في تلك الاثناء قد استفحل امره في الصعيد فاراد ان يملك على سوريا اذ رأى ضعف الدولة التركيّة وانشغالها بمحاربة الدولة المسكوبيّة وحالفه الشيخ ظاهر العمر وعشيرته فأمدّه علي بك بجيش قاده مملوكه محمّد بك ابو الذهب فخان هذا سيّده ورجع الى مصر . فقام علي بك بنفسه وقدم الشام وحارب مع الشيخ ظاهر الاتراك وكان يعضدهم الامير يوسف فانتصر عليهم المصريون في واقعتين سنة ١٧٧١ . ثم ارسل علي بك يطلب من الدولة الروسيّة ان تساعده على الدولة العثمانيّة فقدمت مراكبهم الى صيداء ، وعضدوا المصريين في انتصارهم على العثمانيين ثم ساروا الى بيروت فضربوها ولم يبتعدوا عنها الّا بعد ان دفع الامير يوسف ٢٥،٠٠٠ ريال للاميرال سبينكوف . امّا ظاهر العمر فانتهز تلك الفرصة ليبسط حكمه على معظم بلاد فلسطين . ثم ساءت اموره بعد مدّة برجوع

عليّ بك الى مصر وقتله مسمّماً بدسائس مملوكه السابق ابي الذهب ثم بتحوّل احد ابنائه عنه وعودة ابي الذهب الى الشام مشتركاً مع الاتراك لمحاربته ففتحوا اوّلاً صيداء ثم حاصروا الشيخ في عكّا فامتنع عنهم حيناً حتى أطلق عليه احد جنوده رصاصة أودت بحياته في اواسط آب سنة ١٧٧٥

وما كاد ينجو الامير يوسف من عدوه الشيخ ظاهر العمر حتى وقع في ايدي عدو آخر ألدّ واظلم منه اعني به احمد باشا الجزّار والي صيداء ، وعكّا . وكان هذا اصله من بلاد البشناق يخدم كمملوك بعض امراء مصر فأتى بآثام شتى ثم فرّ هارباً والتجأ الى الامير يوسف الشهابي فأكرمه وأمّنه لكنه ارتدّ على المحسن اليه ولاذ بضروب المكر والخداع الى ان تولى على صيداء وحارب الامير يوسف وتحصّن في بيروت ضدّه فاضطر الامير الى ان يلتجئ الى الدولة المسكوبيّة بواسطة الشيخ ظاهر العمر صديقها وكان الشيخ وقتئذ في عزّ ولايته فاصطلح مع الامير يوسف لخوفه على مدينته صيداء واستدعى الروس ليُخرجوا الجزّار من بيروت قهراً فاتت سفن مسكوبيّة الى مرفأ بيروت وضربت المدينة بمدافعها ونزل من جنودهم قوم حاصروا المدينة وخربوا ابراجها ولم يزالوا يضايقونها برّاً وبحراً مدّة اربعة اشهر الى ان نفد الزاد وبلغت المجاعة الاهلين الى اسوإ حال . فاضطر الجزّار الى ان يطلب الامان على شرط ان يخرج من المدينة سالماً مع أتباعه . ودفع الامير يوسف ثلثمائة الف غرش الى الاميرال المسكوبي كما كان وعده

على ان احمد الجزّار عاد بدهائه وعزّز مقامه واستولى بعد وفاة ظاهر العمر على صيداء وعكّا واجترح من ضروب الجنايات ما لا يحصيه قلم فكان لا يوقفه ضمير ولا يعبأ بسلطان بل قرّبته الدولة العثمانيّة لبلوغ مآربها وقلّدته رتبة الوزارة فطغى وبغى وجيّش الجيوش وحارب ولاة دمشق وطرابلس وامراء لبنان واستولى على سواحل الشام وغرّم الامير يوسف مبالغ طائلة فذاق منه الامرّين

وكان الجزّار انتقل الى عكّا فجعلها من أحصن مدن الشام ولا تزال بقاياها الى اليوم تُشعر بجرازتها وعمّر له اسطولاً لحراستها . ثم تولّى على دمشق غير مرّة وقُلّد ادارة الحجّ وقاتل الاعراب في فلسطين والمتاولة في جبل عامل . وهو في كل تصرّفه يقترف من الفظائع ما ترتجف له الفرائص فاستحقّ بكل صواب اسم الجزّار . هذا

فضلاً عن مطامعه الاشعبيَّة وحرصهِ على جمع الذهب بكل طرائق الحرام كالضرائب الباهظة واستصفاء اموال الناس وبحكمهِ عليهم بالعذابات المهلكة دون ان يراعي لاحد حقاً حتى انهُ نفى التجار الفرنج من صيداء وبيروت

وحصلت عدةُ فتن ومشاغب لخلع نير الجزار إلاّ انّهُ كان بدهائهِ لا يلبث ان يخمد نارها وينتقم من اصحابها. وكان الامير يوسف عضدَ بعض هذه الثورات فلم يفلح وأضحت سبب انقلابه وسقوطه سنة ١٧٨٨ وتولية الامير بشير ابن الامير قاسم المعروف ببشير الثاني او الكبير في مكانهِ. ثم امره بطاردة الامير يوسف فأخرجهُ من لبنان. وبعد مدة عاد الامير يوسف وطلب الامان من الجزار فأمّنهُ واستقدمهُ اليهِ ثمّ غدر بهِ وبكاخيتهِ الشيخ غندور الخوري فشنقهما سنة ١٧٩٠

قضى الامير بشير في ولاية لبنان مدّة بضع سنين (١٧٨٨ ــ ١٧٩٢) تحت نير احمد الجزار وقد استحقّ اسم الكبير بما قصدهُ وسعى الى تحقيقهِ من تحسين احوال الجبل وبسط الامان في انحائهِ وتنشيط اموره الاقتصاديَّة إلاّ انّ جشع الجزار والحاحهُ على الامير بشير بجمع المال دفعاه الى وضع الضرائب الزائدة على اللبنانيين فناءت تحتها كواهلهم وعدلوا الى الثورة بينهم الامراء الشهابيون فاضطرّ الامير بشير الى ان يتخلّى عن الولاية للاميرين حيدر وقعدان ثمّ للامير حُسين ابن الامير يوسف. لكنهُ لم تثبت ولاية هؤلاء الامراء فعاد الجزار وارجع الامير بشير (١٧٩٢ ــ ١٧٩٩) فاتخذهُ كمألوف عادتهِ كآلة لنيل مآربهِ. ولمّا بلغ السيلُ الزُبى فرّ الامير بشير الى مصر ليلتجئ من ظلم الجزار الى الصدر الاعظم العثماني يوسف ضياء بك القادم لمحاربة الحملة الفرنسويَّة في مصر وبقي هناك سبعة اشهر. وقد مرّ في المشرق (١٨ [١٩٢٠] : ٦٨٧ الخ) خبر رحلتهِ الى قطر النيل بقلم رفيقهِ الشيخ سلّوم الدحداح

وبعد رجوعهِ من مصر وجد امور لبنان في عهدة اولاد الامير يوسف فاتّفق معهم على ان يحكموا على شمالي لبنان ويحكم هو على جنوبهِ والفاصلُ بينهم نهر ابراهيم وكان جرجس وعبد الاحد باز بديران امور اولاد الامير يوسف. وبقوا على ذلك الى وفاة الجزار سنة ١٨٠٤ فاستراح الناس بموتهِ

هذه خلاصة احوال سياسة لبنان وبيروت في القرن الثامن عشر لدخولهما معاً في حكم الشهابيين. وقد جرت في بيروت امور اخرى دونك الاهمّ منها

ان بيروت بعد قتل الامير فخر الدين عادت الى خمولها وقلّ عدد اهلها وكسدت تجارتها. فلمّا تولّى الشهابيّون حاولوا تحسين امورها. فبنى فيها الامير ملحم الخان المعروف بخان الملاّحة. وبنت زوجة اخيهِ احمد المكنّاة بأمّ دبوس القيساريَّة العتيقة والبرج المستدير بجانب السور غربي المدينة في الموضع الذي بُنيت فيهِ بعدئذٍ ثكنة عساكر الدولة المتحوّلة اليوم الى السراية الكبرى. وشيّد الامير منصور ابن الامير ملحم في بيروت طاقة القصر جنوبي شرقي كنيسة الكبوشيين الحاضرة ثمّ الديوان وميزان الحرير والقيساريَّة المعروفة باسمهِ. واقتدى بهِ اخوتهُ الامراء عليّ وبشير السمين وحسين فبنوا ابنيةً شتى منها قيساريَّة الصاغة للامير عليّ ومنها دورٌ واسعة عند الباب الجديد قرب باب يعقوب. ولما عاد الامير يوسف الى بيروت بعد حرب الروس للمدينة وخروج الجزار بنى قيساريَّة الاروام التي تحوّلت بعدئذٍ الى خان بسترس. وكذلك الشيخ عبد السلام العماد عمّر قيساريَّة نُسبت اليهِ في رأس سوق العطّارين. ومما بني ايضاً في بيروت في اواسط القرن الثامن عشر « قيسارية البارود » بناها الامير سلمان اللمعي. فكلّ هذه الابنية اعادت لبيروت بعض رونقها. فقصدها التجار الفرنسويون وازداد فيها عدد الموارنة وكان معظم شغلهم صناعة الحرير

ومما ورد في كتابات المرسلين الكبوشيين ان بعض القرصان الايطاليين قبضوا سنة ١٧٥٨ على سفينة لاهل بيروت فغضب لذلك المسلمون وهجموا على ديرهم الواقع جنوبي كنيسة الموارنة الكاتدرائيَّة الحاضرة وداخل الاسوار القديمة فنهبوا الدير واتلفوا ما وجدوهُ فيهِ بعد ما اعتقلوا رهبانهُ. وزعم داود افندي كنعان في رسالتهِ جواهر الياقوت في تاريخ بيروت (الجنان ١ : ٣٧٧) : « ان الامير ملحم ارسل اعوانهُ فأطلقوا المعتقلين وقبضوا على المذنبين واحضرهم اليه فامر بقتل اثنين منهم واستخلص للبادرية ما كان قد نُهب في ديرهم ». وفي تلك السنة فشا الطاعون في البلاد وأُصيب بهِ كثيرون من اهل بيروت. ولما توفي الامير ملحم سنة ١٧٦١ دُفن فيها في جامع الامير منذر التنوخي

ومما كان يرغب الى الموارنة استيطان بيروت وجود قنصل دولة فرنسة الشيخ نوفل ابن حصن الخازن وهو من طائفتهم. فتولى اعمال القنصليَّة الى سنة وفاتهِ ١٧٥٣. وبقيت القنصليَّة فارغة الى السنة ١٧٨٦ حيث ارسل البطريرك يوسف اسطفان الى

ملك فرنسة لويس السادس عشر الخوري انطون قياله ليطلب تجديدها فتُعطى للشيخ غندور سعد الخوري صالح . فاجاب الملك الى ملتمسهِ وتقلّد الشيخ امورها من السنة ١٧٨٧ الى ١٧٩١ وفيها غدر به احمد باشا الجزّار كما سبق فقتلهُ في عكّا

وفي اواسط هذا القرن الثامن عشر حدث امرٌ ذو شأن في تاريخ نصارى لبنان وبيروت ألا وهو تنصُّر الامراء الشهابيين ثمَّ اللمعيين . قيل انَّ اوَّل من دان بالنصرانيَّة الامير عبدالله الشهابي الساكن في غزير على يد الآباء الكبوشيين فتوفي في المنفى سنة ١٧١٧ . ثمَّ الامير علي ابن الامير حيدر ثاني امراء لبنان تنصَّر على يد الكاهن الماروني الخوري ميخائيل فاضل البيروتي مع زوجتهِ سنة ١٧٥٤ لشفاء ابنتها بواسطة ادعية الكاهن المذكور الذي أُقيم بعد ذلك بطريركاً على طائفتهِ سنة ١٧٩٣ . وتبعها ثلاثة من ابناء الامير ملحم اي الامراء سيد احمد وقاسم وحيدر . وفي السنة ١٧٦٤ اهتدى الامير قاسم ابن عمهم عُمر مع زوجتهِ على يد السيد يوسف اسطفان الغسطاوي واعتمد ابنهُ البكر الامير حسن عند مولدهِ ثمَّ اخوهُ الامير بشير المشهور بالكبير في ٦ كـ٢ ١٧٦٧ . وتبعهم بعد حين غيرهم من الامراء واتخذوا جميعهم الطقس الماروني إلَّا واحدًا تبع الطقس الملكي الكاثوليكي . وكذلك الامراء اللمعيون تنصَّروا في ذلك الجيل بعد الشهابيين . وكان اوَّل من سبقهم الى العماد الامير اسماعيل من آل قايدبيه في صليما سنة ١٧٨٨ . ثمَّ امراء قرنايل هداهم الى الايمان القس عمانويل البعبادتي من الرهبانيَّة الانطونيَّة سنة ١٧٩٠ فعمَّد الامير بشير ابن الامير حسن . ثم نصَّر الابُ عمانويل سلام المتيني امراء رأس المتن (١

وممَّا عزَّز ايضاً امور النصرانيَّة في بيروت في القرن الثامن عشر توالي اساقفتها الملكيين وقد مرَّ ذكر سلبسترس الدهَّان المتوفى سنة ١٧١٣ فخلفهُ ناوفيطوس ودبَّر كرسي بيروت . وفي ايامهِ انقسمت الطائفة الملكيَّة الى قسمين كاثوليكي واورثذكسي . وكان ناوفيطس مضادًا للكاثوليك . فسقَّف البطريرك كيرلُّس طاناس على بيروت سنة ١٧٣٦ اثناسيوس دهَّان الذي رُقي بعد ذلك الى منصب البطريركيَّة وتسمَّى ثاودوسيوس ١٧٦١ وكان من الرهبانيَّة الحناويَّة . وخلفهُ الراهب المخلِّصي باسيليوس

١) اطلب تفاصيل تنصُّر كل هؤلاء الامراء في مقالة الكاتبين البارعين عيسى افندي اسكندر المعلوف والشيخ سليم الدحداح في المشرق (١٨ [١٩٢٠] : ٥٤٢-٥٥٢)

جلغاف بعد اسقفيَّتهِ على صيداء . وفي السنة ١٧٧٨ استقال عن اسقفيَّة بيروت فخلفهُ السيد اغناطيوس صرُّوف الدمشقي فثبت في كرسيهِ الى السنة ١٨١٢ حيث أُقيم بطريركًا باسم اغناطيوس ثمَّ قتلهُ ظلماً بعض الأئمَّة بعد ٩ اشهر من السنة (١

امَّا الموارنة فاقام البطريرك يعقوب عوَّاد اسقفاً على بيروت سنة ١٧١٦ المطران عبدالله قرالي رئيس الرهبانيَّة الحلبيَّة اللبنانيَّة وكانُ احد الاساقفة الذين حضروا المجمع اللبناني توفي في يوم عيد الغطاس سنة ١٧٤٢ . فتعيَّن بعدهُ لكرسي بيروت يوحنا اسطفان مطران اللاذقيَّة سنة ١٧٤٣ . ثمَّ سُقِّف على بيروت قبل وفاتهِ يوسف ابن الخوري جرجس اسطفان اخيهِ وهو الذي ارتقى الى الكرسي البطريركي خلفاً لطوبيَّا الخازن سنة ١٧٦٦ . ثم خلفهُ الخوري ميخائيل فاضل الاوَّل ثمَّ اثناسيوس الشنَّيعي الغوسطاوي ثمَّ المطران ميخائيل فاضل الثاني سنة ١٧٩٤ فتوفي سنة ١٨١٩ . وهؤلاء الاساقفة الموارنة لم يسكنوا غالباً بيروت . وقد وُجد منهم في وقت واحد اسقفان على المدينة (٢

وفي اواخر القرن الثامن عشر تعدَّدت النكبات على بيروت وقد سبق أن المراكب المسكوبيَّة ضربتها مرَّتين بالمدافع في عهد الامير يوسف والجزَّار . ونهب جنود الروس اهلها . ثمَّ عاد الجزَّار سنة ١٧٧٦ فاستولى على بيروت ورفع يد الامير يوسف عنها وضبط ما فيها من الاملاك للامراء الشهابيين وهدم دورهم ورمَّم بحجارتها السور وانَّما ابقى دار الامير مراد كحصن . واحرق بيوت النصارى وجعل كنائسهم اصطبلات وقطع الاشجار التي بجوانب المدينة فكل هذه النكبات مع نفي الفرنج من بيروت احلَّت على اهلها كضربة لازبة فتفرَّق شملهم وتلفت صناعتهم وكسدت تجارتهم . وفي كتابات القنصل الفرنساوي هنري غويس (H. Guys) انَّ بيروت اصبحت في اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٠٥ كقرية لا يزيد عدد اهلها على خمسة آلاف

١) اطلب في المشرق ٨ [١٩٠٥] : ١٩٢-٢٠٤) مقالتنا في اسقفيَّة الروم الكاثوليك في بيروت ثمَّ راجع مختصر تاريخ الروم الملكيين الكاثوليكيين (ص ٧٢)

٢) المشرق (٧ [١٩٠٤] : ١٩٠١-١٩٠٢)

البحث الثاني عشر

بيروت في القسم الاول من القرن التاسع عشر (١٨٠٤–١٨٦٠)

كان الذي يرى بيروت بعد موت الجزّار يكاد يتشاءم بمستقبلها غير انَّ الله اذا اراد لبلدٍ خيراً رفعه من الحضيض الى اوج الرقي والنجاح. وقد صحَّ ذلك في عاصمة لبنـان فان الذين دخلوها في العشر الاوَّل من القرن التاسع عشر يصفونها كبلدة صغيرة تحدق بها اسوار متداعية تضم بضع مئات من المساكن مع قليل من الاسواق الضيقة القذرة لا ترى في وسطها الاشجار ما خلا جنائن بعض الخاصَّة. وكانت الحركة التجاريَّة قد خمدت لا تكاد سفن الفرنج تقصد مرفأها بعد ان اخرج الجزَّار منها عمالهم وانزوى اللبنـانيُّون في جبلهم خوفاً من بطشهِ وفتكهِ. فلم يبقَ في بيروت من النصارى الّا زهاء الف نفس اكثرهم من الروم الاورثذكس ثمَّ من الموارنة والروم الكاثوليك

وكان اوَّل ما استبشر بهِ اهل بيروت معاهدةً تقرَّرت بين السلطان سليم خـان الثالث ونابوليون الاوَّل فُتحت بموجبها أساكل الشام للتجار الفرنسويين فعادوا اليها واخذوا يسعون الى تجديد المعاملات التجاريَّة بينها وبين ثغر مرسيلية. وانَّما فضَّلوا هذه المرَّة بيروت على صيداء وطرابلس لحسن موقعها وطيب هوائها وقربها من لبنان ومعاملهِ الحريريَّة الكثيرة الاقبال وهي فرضة دمشق ومحطّ قوافل البلاد الداخليَّة

ولنا شاهد عياني على احوال بيروت ومعاملاتها منذ اوائل القرن التـاسع عشر الى منتصفهِ ألا وهو القنصل الفرنساويّ الشهير بكتاباتهِ المتعدّدة عن سوريَّة عموماً وعن بيروت خصوصاً نعني بهِ المسيو هنري غويس (H. Guys) الذي استوطن الشام منذ حداثة سنّهِ ثمَّ تردَّد الى بيروت بعد غيبة وتعيَّن عليها بصفة قنصل دولتهِ غير مرَّة فراقب امورها بكل دقَّة وقد قضى أجلهُ نحو السنة ١٨٦٥ . وقد اثبت في كتبهِ ملحوظاتهِ الواسعة عن بيروت وخواصها واخلاق اهلها وترقيها في المعاملات التجاريَّة وتقدُّمها البطيء في الآداب والعلوم

وقد وقفنا في سياحات بعض الفرنج على احصاء اهل بيروت في السنة ١٨٢٠ فاذا هو يبلغ ٨٠٠٠ نفس ثم افادنا عن احصائهم المسيو غويس سنة ١٨٣٨ حيث بلغوا

١٥٠٠٠ منهم ٧٠٠٠ مسلم والباقون نصارى بينهم الكاثوليك (موارنة وملكيُّون وسريان وارمن) ٣٥٠٠ والباقون روم ٤٠٠٠ ودروز ٨٠٠ ويهود ٢٠٠ وكان عدد الفرنج ٤٠٠

امَّا التجارة بعد ما نالها من الكساد في عهد الجزار فانَّها عادت الى حسن احوالها في ايام خلفهِ سليمان باشا والي صيداء الذي بعدلهِ وحكمة تدبيرهِ وحسن سياستهِ اصلح الامور وضمّد جراحات البلاد التي كان الجزار نكأها بسوء سيرتهِ وطالت مدتهُ رحمة للاهلين فبقي في رتبتهِ نحو خمس عشرة سنة. وقد دوَّن اعمالهُ الشريفة احد الكتبة في ذلك العهد وهو حنَّا افندي العوراء. ومن تاريخهِ نسخة في مكتبتنا الشرقيَّة. ولعل هذه الحال كانت زادت رقياً لولا ان عبدالله باشا خلف الخازندار سليمان ضرب على الاهلين الضرائب الفادحة التي اساءت الاحوال بعد صلاحها

وحصلت في السنتين ١٨٢١و١٨٢٢ من ولاية عبـدالله باشا بمزاحمة الامراء الشهابيين للامير بشير مشاغبات ومنافرات دعت الامير الى الفرار من وجه اعدائهِ الى حوران. ثم تجدَّدت الفتن في عهد درويش باشا بعد عزل عبد الله باشا فهرب الامير بشير الى مصر ولاذ بمحمَّد علي فعلت الفوضى على بلاد الشام ولم تنتهِ حتى عاد عبدالله باشا وردَّ الى الجبل الامير بشيراً بكل اكرام.

وفي السنة ١٨٢٦ انتشبت الحرب بين اليونان والدولة العثمانيَّة فارسل الاروام اسطولهم الى بيروت ليستولوا عليها فقحموا على برجها المعروف بابي هـدير ونصبوا السلالم على سورها فدخلها بعضهم بينما كانت المراكب تطلق مدافعها على المدينة. لكن الاهلين احتشدوا فقاوموهم وبلغ الخبر الامير بشيراً فسيَّر رجالاً لمقاتلتهم. فلما رأى الاروام جموعهم خافوا وركنوا الى الفرار واقلع الاسطول سائراً الى بلاده فاتخذ بعض اصحاب الفتن هذه الفرصة لينهبوا نصارى بيروت باستـدعاء الاروام فهاج المسلمون وهرب النصارى الى الجبل والقي بعضهم في السجن ولم تهدأ الامور إلّا بعد مفاوضات ومصادرات وتغريمات تداخل فيها وزير دمشق عبد الله باشا والامير بشير

وفي السنة ١٨٣١ ارسل عزيز مصر محمَّد عليّ ابنهُ ابراهيم باشا ليفتتح سوريَّة ويُدخلها في حكم دولتهِ المصريَّة فكان النجاح حليفهُ وانضمَّ الامير بشير بقواه الى المصريّين لينجو من عَنَت الدولة التركيَّة وظلم عمّالها. وبقي المصريون مستولين على

بلاد الشام تسع سنين نشروا فيها الامان ونشَّطوا التجارة والصناعة وألفوا قلوب النصارى لولا انهم بعد مدة هيّجوا عليهم الرأي العام بما وضعوهُ من الضرائب التي ناءت تحت اثقالها مناكب السوريين عموماً واللبنانيين خصوصاً وحاولوا الزام الاهلين بالخدمة العسكريّة فقام لمناهضتهم قومٌ من اللبنانيين بمعاضدة الدولة التركيّة واستفحل الفساد فآلت الامور الى ان اتفقت الدول الاوربيّة على إبعاد المصريين واعادة بلاد الشام الى المملكة العثمانيّة. ولمّا صمّم المصريون على الاباء قدمت مراكب انكليزيّة يرئسها الكومودور نابيه (C. Nappier) واذ اصرَّ محمود بك متسلم بيروت باسم ابراهيم باشا على رفضهِ تسليم المدينة اطلق الانكليز المدافع على أبنيتها وهدموا جانباً منها. ففرَّ سليمان باشا قائد الجنود المصريّة المرابطة فيها واستلمها الكومودور الانكليزي فأعادها الى الدولة العثمانيّة. ثمّ اخذت جنود الاتراك مع اللبنانيين يطاردون عسكر ابراهيم باشا فتعقّبوهُ الى ان خرج بجيشهِ من سوريّة الى موطنهِ مصر

وبخذلان المصريين سقطت ايضاً ولاية الامير بشير الكبير الذي اضطرَّ الى تقدمة خضوعهِ واختار لمنفاهُ جزيرة مالطة وذلك سنة ١٨٤١ ثمّ انتقل منها بعد مدّة الى الاستانة حيث توفي سنة ١٨٥٠ وقُبر في كنيسة الارمن الكاثوليك (١

ثمّ صدر امر الدولة سنة ١٨٤٢ بان يُنقَل من صيداء الى بيروت كرسي الولاية ويرابط فيها الجند وعُهد تدبير امرها الى سليم باشا المعروف بهمتهِ واعتدالهِ. فمن ذاك الحين دخلت بيروت في طور جديد من الحياة. وبخراب اسوارها اخذ الناس يشيّدون الابنية خارجاً عنها ويُحكمون بناءها على طراز لطيف ويجعلون فوقها العلالي ويزرعون بقربها الجنائن والاشجار المثمرة فاتسعت المدينة اولاً من جانبها الشرقي الى جهات نهرها ثمّ شُيّدت غيرها من المباني في غربيّها وجنوبها

وراجت تجارة بيروت بعد خروج المصريين بفضل الاجانب الذين استوطنوها وباشروا فيها المعاملات مع الوطنيين وانشأوا فيها المحلّات التجاريّة والشركات المالية وازدهرت خصوصاً معامل الحرير. ولنا في احصاءات القنصل هنري غويس دليل باهر على تقدّم بيروت فانهُ حسب في السنة ١٨٢٧ الواردات الى بيروت من فرنسة بقيمة ١،٣٥٣،٧٢٥ فرنكاً والصادرات منها الى فرنسة بقيمة ١،٢١٤،٨٣٠ فرنكاً. وفي

١) اطلب المشرق (٧ [١٩٠١] : ١٠٦٢)

نهاية السنة ١٨٤٤ بلغت الواردات ٤،٥٨٨،٣٢٥ ف والصادرات ٣،٠٦٧،٧٥٨ ف وحسب لسنة ١٨٤٥ الواردات من مصر الى بيروت بقيمة ٦،٤٩٠،٠٠٠ ف والصادرات الى مصر بثمن ٤،٩٧٩،٦٠٠ ف يليها الواردات من انكلترة ٥،٧٣٥،٨٠٠ ف والصادرات اليها ٥،٧٦٠،٩٠٠ ف ثمّ الواردات من تركيّة ٣،٥٩٨،٨٥٠ ف والصادرات اليها ٤،٢٨٣،٥٣٠ ف ثمّ الواردات من النمسا ٦٧٢،١٠٠ ف والصادرات اليها ٧٩،٩٠٠ ف ثمّ الواردات من ايطالية ٤٤٢،٨٠٠ ف والصادرات اليها ٨٥١،٦٠٠. وقد ذكر معظم ما صدر من بيروت فكان للحرير المقام الاوّل بقيمة ١،٨٦٩،٥٠٠ ف ثمّ القطن (٤٦٧،١٢٠ ف) ثمّ السمسم (٢٢٦،٨٥٠ ف) ثمّ الاسفنج (١٧٢،٨٠٠ ف) ثمّ النقود (٨٥،٠٠٠ ف) ثمّ الصوف (٥٥،٩١٤ ف) ثمّ العفص (٥٤،٦٨٤ ف) ثمّ الشمع (٦،٥٠٠ ف) ولم يتجاوز حينئذٍ ثمن التبغ قيمة (١،٥٠٠ ف)

فيظهر من هذا ما بلغتهُ بيروت في ذلك العهد من الرقي حتى اصبحت مركزاً للاعمال التجاريّة لكل سواحل الشام. وكانت الدول على مثال فرنسة اقامت لها قناصل لترويج امور بلادها واولهم قنصلا انكلترة والنمسة

الاحوال الدينيّة في هذه الحقبة

وكانت الامور الدينيّة في بيروت تجاري برُقيها الاحوالَ المدنيّة. فكان (الموارنة) ازدادوا فيها عدداً فقصدها كثيرون من اللبنانيين ليتعاطوا فيها التجارة والصناعة او ليفرّوا مما حصل في لبنان من المنازعات والاضطرابات لاسيما بعد نفي الامير بشير الكبير. وكان يسوسهم اساقفة افاضل اخذوا يقيمون في بيروت اخصّهم المطران بطرس كرم الذي تعيّن لتدبير ابرشيّتها خلفاً للمطران مخائيل فاضل سنة ١٨١٩ فرعاها بغيرة مدّة ٢٥ سنة وكان يتنقّل في سكناهُ بين بيروت وقرى ابرشيّتهِ وكانت وفاتهُ في بسكنتا وطنهِ في ١٥ ك ٢ سنة ١٨٤٤. وقام بعدهُ مطراناً على بيروت الراهب اللبناني طوبيا عون فساس رعاياهُ احسن سياسة واحرز لهُ بفضلهِ وجهادهِ ذكراً طيّباً بين ابناء ملّته واهل وطنه وكانت وفاتهُ في سنة ١٨٧١

وتمتّع (الروم الكاثوليك) في القسم الاوّل من القرن التاسع عشر بالراحة الدينيّة تحت رعاية ثلثة من ابناء الرهبانيّة الحنّاويّة الكريمة وهم السادة ثاودوسيوس بدر

[illegible]

[illegible]

الحلبي خلف السيّد اغناطيوس صرّوف (١٨١٤ـ١٨٢٢) واغناطيوس دهان (١٨٢٢ـ١٨٢٤) واغابيوس رياشي بعد فراغ الكرسي مدةً (١٨٢٨ـ١٨٧٨) وفي عهده بُنيت كنيستهم الكبرى الواسعة الارجاء اللطيفة البناء ذات الايقونستاس البديع على اسم مار الياس النبي . ولم يتكدّر صفاء الطائفة بغير ما حصل من الانشقاق بسبب الحساب الجديد سنة ١٨٥٧ فانسلخ بعض الجهّال عن كنيستهم تمسّكاً بحساب قديم ظهر غلطهُ لكل العلماء.

اما (الروم الاورثذكس) فتسقّف على كنيستهم بعد وفاة مكاريوس صدقة سنة ١٨٠٤ اثناسيوس مخلّع الذي توفي سنة ١٨١٣ ثم بنيامين († ١٨٤٨) ثم ايروثاوس الى السنة ١٨٦٤ فاستقال

الرهبانيات اللاتينيّة في بيروت

ومما نالتهُ بيروت لنجاحها الديني في النصف الاول من القرن التاسع عشر حلول (الرهبانيات اللاتينية) في ربوعها فكان اول من عاد اليها بعد انقطاعهم عنها بسبب الحروب وظلم الجزّار (الآباء الفرنسيسيون) كما سبق . ثمّ (الآباء الكبوشيون) وكلهم من الايطاليين غالباً . وكان للكبوشيين منزل ضيّق وسط المدينة تحت كنيسة القديس جرجس المارونيّة الحاضرة فلمّا ترأس عليهم الاب زكريّا فانشيولي (Zacharie Fanciulli) اقتنى لهم المحلّ الذي يسكنونهُ اليوم فعمّروا هناك كنيستهم الكبيرة على اسم القديس لويس ملك فرنسة وهي الكنيسة الراعويّة للّاتين

وفي العشر الثالث من القرن التاسع عشر سكن (اللعازريون) بيروت وقاموا خصوصاً في خدمة راهبات المحبة اللواتي قدمن اقطارنا مع رئيستهن الطيّبة الذكر الاخت جيلاز سنة ١٨٤٧ فاخذنَ مذ ذاك الحين يتفانين في خدمة الفقراء والمرضى والمنوسين بما عُرفن بهِ من الهمّة والنشاط والتجرّد التام

اما (اليسوعيون) فكان اول حلولهم في بيروت السنة ١٨٣٩ في زمن حكم المصريين على الشام وكان رئيسهم اذ ذاك الاب مكسيميليان ريلو البولوني الاصل وهو المعروف بالاب منصور فانتهز فرصة تسامح المصريين مع النصارى فاقتنى ملكاً واسعاً خارج اسوار المدينة كان مزروعاً بشجر التوت واخذ يُعدّ سكنى لاخوتهِ

بناء دير صغير . فاتت الوقائع السياسيّة في تلك الآونة بين الدول والمصريين فاضطرّتهُ الى تأجيل العمل ولاسيما انهُ كان قد تعيّن كنائب القاصد الرسولي للسيد ڤلّارديل فكانت واجبات مهمّته تدعوهُ الى التداخل في امور النصارى فلم يمكنهُ ان يُخرج نيّتهُ الى حيز الوجود إلّا بعد نزوح المصريين عن الشام . فاستأنف العمل بعزم وفكّر ايضاً بمدرسة للصناعة لتهذيب احداث من النصارى . لكنّ الحبر الاعظم استدعاهُ في تلك الاثناء الى رومية ليقيمهُ رئيساً على مدرسة انتشار الايمان (البروبغندا) فخلفهُ الابُ مبارك بلانشه في رئاستهِ وبعد معاكسات شتى وعقبات وجدها في طريقهِ اتاح لهُ الله ان ينجز العمل ويعمّر الدير في الحيّ المعروف اليوم بالصيفي ويفتح فيهِ مدرسةً للاحداث فتمّ ذلك في تشرين الثاني من السنة ١٨٤١

وفي اوائل هذا القرن التاسع عشر كان القصّاد الرسوليون يسكنون في لبنان فسكن السيّد لويس غندلفي (١٧٩٦ـ١٨٢٥) بين اخوته اللعازريين في عين طورا ثمّ عمّر هناك خلفهُ السيّد لوزانّا (١٨٢٥ـ١٨٣٢) داراً للقصادة سكنها هو وخلفاؤهُ . ثمّ اخذوا يتردّدون الى بيروت وفيها استقام وتوفّي السيّد فرنسيس ڤيلارديل (١٨٤١ـ١٨٥٢) وقد بنوا شرقيّ ساحة الشهداء داراً واسعة سكنوها الى عهد السيّد لودوفيكو بياڤي الذي انتقل الى دار القصادة الحديثة في رأس بيروت. وكذلك باع دار القصادة في عين طورا واتّخذ للاصطياف دار حريصا . فكان وجود القصّاد الرسوليين في بيروت منشطاً لكل الاعمال الدينيّة فيها

ومذ ذاك الحين خصوصاً أُنشئت الاجتماعات الدينيّة كالاخويّات والرياضات السنويّة في كنائس المرسلين ولا سيما في ايام الصوم الكبير . نخصّ بالذكر اخويّة اعيان بيروت الكاثوليك المنشأة سنة ١٨٤٩ في كنيسة الآباء اليسوعيين فبلغت اليوم سنتها السابعة والسبعين . وكان من ثمارها اعمال خيريّة مشكورة كمساعدة الفقراء وتهذيب الصغار وزيارة المحبوسين وتعزيز روح العبادة في بعض شهور السنة

الآداب في بيروت

ومما جعل لبيروت ايضاً مقاماً رفيعاً في القسم الاول من القرن التاسع عشر انشاء (المدارس) فيها فكانت اولاً كتاتيب صغيرة تُقرأ فيها مبادئ القراءة والكتابة

والحساب يعلّم فيها بعض المعلّمين البسطاء. لكل طائفة مدرسة ثمَّ سعى المرسلون الى فتح مدارس ارقى شأناً وانّما لم تبلغ شأوهــا إلّا بعد حوادث السنة الستّين . وكان يدرس طلبتُها مع العربيّة احدى اللغتين الايطاليّة او الافرنسيّة واصول العلوم

وقدم الى بيروت بعض اعضاء جمعيّة التوراة (البيليشيين) سنة ١٨٢٦ وغايتهم نشر تعاليمهم البروتستانيّة فتصدّى لهم السيّد بطرس كرم وفنّد اضاليلهم. لكنهم عزّزوا قواهم وسكنوا بيروت ونقلوا اليها مطبعتهم في مالطة وكان في مقدّمتهم زعيمهم عالي سميث الذي بعد تضلّعه من العربيّة سعى مع رفيقه فان ديك وغيرهما من بعض الوطنيين اخصّهم الشيخ ناصيف اليازجي وبطرس البستاني فعرّبوا التوراة وعُنوا بنشرها وتوزيعها بعد ان حذفوا منها الاسفار المدعوّة بالاسفار الثانويّة كالحكمة وابن سيراخ ونبوّة باروخ وطوبيا والمكابيين وحرّفوا على مقتضى آرائهم بعض آيات العهدين المقدّسين. وكان ذلك سبباً لإنشاء الروم الاورثذكس جمعيّتهم المدعوّة الجمعيّة السوريّة الاورثذكسيّة كانوا يجتمعون قريباً من الكنيسة فيخطبون في مواضيع دينيّة ويقرأون في كتاب ملاطيوس ضدّ البروتستانت ثمَّ طبعوا ما اهملوهُ من الكتب المقدّسة

واجتهد المرسلون الاميركان في فتح المدارس في بيروت وفي انحاء الجبل للذكور والاناث نحو السنة ١٨٣٥ ثمَّ انشأوا في بيروت مدرسةً داخليّةً للذكور سنة ١٨٤٠ كانت غايتها الخاصّة نشر مذهبهم والحقوا بها سنة ١٨٤٦ مدرسةً مثلها للاناث. وهذا ما دفع راهبات المحبة ان يخصّصن للبنات الكاثوليكيّات مدارس ابتدائيّة مجّانيّة للفقراء ومدارس ثانويّة للطبقة الوسطى من الاهلين منذ السنة ١٨٤٧ وقبلن ايضاً اوانس داخليّات في ديرهن سنة ١٨٤٩

﴿مطابع بيروت الاولى﴾ ومن المعلوم انَّ المطابع من اعظم اسباب الرقيّ والتفقّه وقد كان منها السهم المعلّى لبيروت في النصف الاوّل من القرن التاسع عشر كما بيّنّا ذلك في مقالات واسعة أفردناها لتاريخ الطباعة في الشام وفلسطين والعراق(١ كانت (مطبعة القديس جاورجيوس) للروم الاورثذكس اوّل مطبعة ظهرت في

١) اطلب اعداد المشرق في السنتين الثالثة والرابعة للمجلّة ١٩٠٠و١٩٠١

بيروت بهمّة الشيخ ابي عسكر الجبيلي في اواسط القرن الثامن عشر طُبع فيها حينئذٍ بعض الكتب الدينيّة والطقسيّة كالمزامير والسواعية والتعليم المسيحي ثمَّ خمدت حركتها فلم يبرز منها للنور شيء. يذكر الى السنة ١٨٤٥ فعادت الى نشر الدينيّات والطقسيّات بحرفها القديم الى آخر العهد الذي نحن بصدده

واعظم منها في بيروت (المطبعة الاميركية) التي استعارت اوّلاً أدواتها وحروفها من مطبعة بعثة الاميركان في مالطة وادارها عالي سميث فطبع اوّلاً فصل الخطاب للشيخ ناصيف اليازجي وبعض كراريس دينيّة. ثمَّ جدّد ادواتها واستبدل حروفها بما هو أشرق والطف فسبكها في ليبسيك وطُبع عليها ترجمة الكتاب المقدّس السابق ذكرها (١٨٦٠ــ١٨٦٥) وخلفهُ الدكتور فان ديك فبلغها كمالها فنُشرت فيها عدّة كتب منها مدرسيّة وعلميّة وادبيّة ومنها دينيّة وجداليّة بروتستانيّة بلغ عددها نحو خمسين كتاباً قبل حوادث السنة ١٨٦٠

ثمَّ رأى الكاثوليك حاجتهم الى مطبعة كبيرة تفي بلوازم دينهم وتهذيب اولادهم فتحفّز للامر المرسلون اليسوعيّون فأنشأوا (المطبعة الكاثوليكية) سنة ١٨٤٨ فنُشر فيها اوّلاً نحو عشرة كتب دينيّة ومدرسيّة على الحجر ثمَّ اتّخذوا لاشغالها الحروف المسبوكة في باريس سنة ١٨٥٣ وبقيت مطبوعاتها محصورة العدد زمناً حتى اتّسع نطاق اعمالها وزاد الإقبال على منشوراتها وتحسّنت ادواتها فبلغ ما نشرتهُ من التآليف المختلفة قبل السنة ١٨٦٠ نحو عشرين كتاباً

والمطبعة الرابعة التي ظهرت في هذه الحقبة هي (المطبعة السوريّة) لصاحبها الشهير المرحوم خليل الخوري الذي عيّنتهُ الدولة التركيّة مديراً للمطبوعات فأنشأ مطبعتهُ سنة ١٨٥٧ ونشر اوّل جريدة ظهرت في سوريّة دعاها حديقة الاخبار وفي مطبعتهِ نُشر الدستور العثماني وبعض الكتب القانونيّة والتجاريّة حتى السنة ١٨٦٠

وظهرت ايضاً في اواسط القرن التاسع عشر مطبعة عُرفت اوّلاً بمطبعة ابراهيم افندي (النجّار) الطبيب نشر فيها تاريخهُ للدولة العثمانيّة المعروف بمصباح الساري ونزهة القاري سنة ١٢٧٢هـ (١٨٥٥م). وهذه المطبعة ورثها بعد ذلك يوحنّا النجار اخو ابراهيم فاشتغل بها بعد السنة ١٨٦٠ ودعاها (المطبعة السوريّة)

فهذا مجمل ما ظهر من المطابع في تلك الحقبة فساعدت على ترقية الآداب ونشر

[illegible]

[illegible]

(١ [illegible]

(١) [illegible]

[illegible]

٢) [illegible]

٣) [illegible]

٤) [illegible]

٥) [illegible]

التمدّن العصري واستنهاض همم الكتبة وكانت الدولة التركيّة تُطلق لها الحريّة لا تهتمّ اولًا بمراقبتها

وامتازت ايضاً بيروت في اواسط القرن التاسع عشر «بنواديها العلميّة» سبق الى انشاء اوّل نادٍ منها المرسلون الاميركان سنة ١٨٤٧ جمعوا فيه بعض أدباء المدينة الساعين بتعزيز العلوم العصريّة في وطنهم كالشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني وميخائيل مدوّر وسليم دي نوفل ويوسف كتفاكو مع اساتذة المدرسة الاميركيّة. فكانوا يجتمعون في اوقات معلومة ويلقون بعض المحاضرات الادبية والعلميّة التي نشروا منها جانباً في مجموع اعالي سميث دعاه مجموع الفوائد وفي كراريس صغيرة اصدروها سنة ١٨٥٢ ثمّ بطلت جمعيّتهم بعد قليل

وكذلك سعى اليسوعيون الى انشاء جمعيّة من الكاثوليك سنة ١٨٥٠ دُعيت (الجمعيّة الشرقيّة) امتاز من اعضائها عدّة رجال كابرهيم النجار الطبيب وفرنسيس مسك والشاعر الشيخ حنا ابي صعب والوطني رزق الله خضرا والمؤرخ طنوس الشدياق وحبيب اليازجي

وفي ذاك الزمان اجتهد ايضاً الروم الاورثذكس في تأليف جمعيّة في بيروت لاجل العلوم والفنون ضمّت اليها بعض وجوه ملّتهم كميخائيل شحاده وفضل الله بسترس واسعد سرسق ونعمه جرجس طراد والقس جراسيموس الشامي

على انّ حياة هذه الجمعيّات لم تطل مدّتها وكانت الحكومة التركيّة تنظر اليها شزرًا وتخاف ان يغلب عليها روح السياسة

فترى انّ بيروت نهضت في اواسط القرن التاسع عشر نهضةً راقية وجرت مسرعةً في معارج التقدّم فمهّدت لسائر انحاء الشام الطريق لمجاراتها في هذه الحلبة الشريفة. ولو اردنا سَرد ما نُشر وقتئذٍ من التآليف الادبية والتاريخيّة والعلميّة والفنيّة لاتينا بجدول واسع وما كان ذلك الّا مقدّمة لحقبة ثانية كست بيروت حلّةً من المجد لا تُبارى (١

على ان المدينة لم تسلم من بعض الآفات التي حلّت بها كنكبة الزلازل في السنة

١) راجع الجزء الاوّل من كتابنا الآداب العربية في القسم الاول من القرن التاسع عشر (الطبعة الثانية ١٩٢٤)

١٨٢٦ وداء الطاعون والهواء الاصفر غير مرّة. وتكدّر اهلها بما حصل من فتن الدروز سنة ١٨٤١ في لبنان وتحاملهم على النصارى.

البحث الثاني عشر

بيروت في القسم الاخير من القرن التاسع عشر الى يومنا (١٨٦٠—١٩٢٦)

ان اخبار بيروت في هذه الحقبة الاخيرة لا يمكن حصرها في صفحات قليلة وكثير منها يصعب تدوينهُ وهو يمسّ اشخاصاً قريبين من عهدنا تقتضي اللياقة السكوت عن اعمالهم ومن ثمّ لا نستطيع ان نروي منها إلّا ما ذاع وشاع.

وتسهيلًا للاحتياط بتاريخ بيروت في هذه المدّة نقسم بحثنا الى اربعة ابواب نخص الاول منها لبيروت السياسيّة والثاني لبيروت الدينيّة والثالث لبيروت الادبيّة والرابع لبيروت الاقتصاديّة

الباب الاوّل : بيروت السياسيّة

زادت بيروت تقدّماً ونجاحاً بعد ان نُقلت اليها دوائر اشغال الدولة العثمانيّة في اواسط القرن التاسع عشر لسقوط عكّا واهمال صيداء. إلّا انّ احوال لبنان السيّئة كانت تؤثر فيها تأثيرًا ظاهرًا. ولمّا منح الباب العالي سنة ١٨٥٦ باغراء الدول الاوربيّة خطّاً همايونيًا لنصارى الشام لمساواتهم مع المسلمين بالحقوق ثارت ثائرة الاسلام وضمروا لمواطنيهم الشرّ. وفي تلك الاثناء سنة ١٨٥٧ عزل وامق باشا وقدم بيروت عوضاً عنهُ خورشيد باشا الذي سعى جهده في التحريش بين الاهلين متستّرًا. فقام الدروز اوّلًا ثم تبعهم المسلمون مع جند الاتراك وحصلت سنة ١٨٦٠ تلك الحوادث المؤلمة التي حوّلت لبنان ودمشق الى مناقع دمٍ ومجازر ابرياء.

وكان الدروز تقدّموا الى ضواحي بيروت يقصدون الزحف عليها فلم تنجُ من فتكهم إلّا لخوفهم ممّن كان يسكن فيها من ممثلي الدول ويربط في مرفاها من المراكب الاجنبيّة. فاندفعوا اندفاع السيل على قرى لبنان الجنوبيّة واعملوا في اهلها السيف وفي مبانيها النهب والنار وخورشيد باشا لا يحرّك ساكنًا

ولمَّا خمدت الامور بتوسّط الدولة الفرنسويَّة وحملة جنودها تحت قيادة الجنرال بوفور لخلاص النصارى اصبحت بيروت ملجأً لبقايا الجبل ودمشق فبلغ عدد المنكوبين نحو ثلثين الفاً تنافست الارساليات الكاثوليكيَّة بمساعدتهم وارسلت فرنسة الاحسانات الوافرة للتفريج عن كربتهم. ومذ ذاك الحين استوطن كثيرون من اللبنانيين بيروت واتّسعت دائرة اشغالها

وفيها حصلت تلك المفاوضات الطويلة بين ممثلي الدول والمفوَّض العثماني فؤاد باشا فلم يزل يكدُّ جبينهُ ويسهر عينهُ حتى برأ ساحة خورشيد باشا وكثيرين من الجُناة ولم ينل اللبنانيون من التعويض إلّا ما لا يُعبأ بهِ

ثمَّ تتابعت المفاوضات في اواخر السنة ١٨٦٠ الى اواسط السنة ١٨٦١ حتى اتّفقت اللجنة الدوليَّة على نظام لبنان الاساسي الاوّل في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ ثمَّ حوّروه قليلاً واجروهُ فعلاً بما خوّلوا لبنان من الاستقلال النوعي وإقامة متصرفين مسيحيّين تولّوا تدبيرهُ خمسين سنةً كان اولهم داود باشا وآخرهم اوهانس باشا الارمني خلفهُ في ايّام الحرب الكونيَّة ثلاثة متصرفين اتراك عليّ منيف بك ١٩١٥ ثمَّ اسماعيل حقّي بك ١٩١٧ ثمَّ ممتاز بك ١٩١٨

وكانت بيروت في تلك المدَّة اوّلًا منوطة بولاية سوريَّة التي كان مركزها دمشق فجُعلت قائمقاميَّة ضيّقة النطاق قليلة النفوذ فسكنت بذلك حركتها وخمدت تجارتها وساءت احوالها إلّا ان مركزها بقرب البحر واتّصالها باوربة وهمّة اهلها وازدياد عدد الاجانب في ربوعها اضطرّ الدولة التركيَّة ان ترخي من خناقها فجعلتها متصرفيَّة سنة ١٨٦٤ . والحقت بها قائمقاميَّة صور وصيدا ومرجعيون وتولّى فيها متصرفون يقيمهم ولاة سوريَّة مدَّةً ويبدلونهم بعد زمن قليل كمألوف عادة الاتراك . وبقي الامر على ذلك الى السنة ١٨٨٨

وفيها فصل السلطان عبد الحميد بيروت عن ولاية دمشق فاصبحت ولايةً منفردة أُنيط بها متصرفيات اللاذقيَّة وطرابلس وعكّا ونابلس . فكان اوّل والٍ على بيروت سنة ١٨٨٨ علي باشا خلفهُ سنة ١٨٩٢ خليل خالد بك ثمَّ نصوحي بك ١٨٩٤ ثمَّ رشيد بك ١٨٩٧ ثم خليل باشا ١٩٠٤ ثم ناظم باشا ١٩٠٨ ثم حازم بك وادهم بك وبكر سامي الذي في ايّامهِ انتشبت الحرب الكونيَّة فخلفهُ عزمي بك

ثم اسمعيل حقي بك الى نهاية الحرب وسقوط الحكومة التركيَّة سنة ١٩١٨

وفي هذه المدَّة حصلت بيروت على الامان والطمأنينة . إلّا انَّ الاصلاحات التي وعدت بها الدولة بقيت مواعيد عرقوبيَّة لم يُصب منها نصيباً اهلُ الشام عموماً ولاسيما النصارى. ولمَّا أُعلن بالدستور اوّل مرَّةٍ سنة ١٨٧٦ ارسلت بيروت الى الاستانة نائبين عادا بعد زمن قليل فارغَين لاستبداد السلطان عبد الحميد والغاء مجلس المبعوثان وثبات الامور على حالها المعوجّة فأنَّت الصدور لمظالم العمّال ولتفاقم الضرائب وغلبة الرشوة

ولمَّا عاد الدستور ثانيةً وفاز بالسياسة الحميديَّة ثمَّ بصاحبها عبد الحميد عمَّ الفرح اهل بيروت واستبشروا بهِ خيرًا وتصافح الشيخ والقسيس اشارةً لتأليف القلوب ونظموا القصائد العامرة في إطراء الدستور إلّا انَّ فرحهم لم يثبت زمناً طويلًا اذ قامت جمعيَّة الاتّحاد والترقّي واستبدَّت بالحكم لغاياتها السرّيَّة فكانت وطأتها على الناس اثقل من الوطأة الحميديَّة على كلّ من يتعرَّض لاحكامها . واذ عارضتْها جماعة الحزب العربي الوطني نقمَت على ذويهِ واوقفت البعض منهم ثمَّ اجتمعوا في باريس وعقدوا فيها موتمرًا فاحتفظت على اسمائهم لتفتك بهم عند سنوح الفرصة

وفي السنة ١٩١٢ انتشبت الحرب بين ايطالية وتركيَّة بسبب طرابلس الغرب فقدمت دارعتان ايطاليّتان الى بيروت واطلقتا القنابل على طرّادين تركيَّين عون الله وانقره كانا راسيين في المرفأ واغرقتاهما فحصل بذلك هيجان بين المسلمين فهجموا على مستودع الرديف ونهبوا اسلحتهُ وحاولوا مقاتلة الاجانب وكاد يتفاقم الشرّ لولا اتّخاذ الوالي حازم بك الوسائل الفعّالة لمنع الاعتداء وكبح الثورة

وفي اواخر شهر تموز ١٩١٤ وقعت تلك الحرب الكونيَّة العوان التي قلبت العالم ظهرًا لبطن وكانت تركيَّة تستعدّ لتخوض غمراتها ريثما تجمع قواها . وانتهزت فرصة انشغال الدول بالحرب وتنشيط دولة المانية سرًّا لاعمالها فألغت ما كان للاجانب من الامتيازات القديمة التي نالوها بمعاهدات سابقة عُقدت بينها وبين الباب العالي فحصلت وقتئذٍ مظاهرات مهيّجة كان من شأنها ان تُسعر نار الفتن بين المسلمين والنصارى وما لبثت ان دخلت تركيَّة ساحة الحرب في جانب الدول المركزيَّة في اوائل

أثر دخول تركيا الحرب على بيروت

شهر تشرين الثاني ١٩١٤ فأصيبت بيروت بسببها بآفات متعددة اذ أُبعد الاجانب وأُقفلت القنصليّات وانقطعت المواصلات التجاريّة مع اوربّة ومصر وغلت الحاجيات وبطلت عدّة صنائع فبقي ألوف من الناس يتضوّرون جوعاً وسيق كثيرون الى الحرب ممّن لم يمكنهم ان يفدوا نفوسهم بالمال بل وقعت التهم في قوم من الاعيان والادباء فقُتل البعض شنقاً ونُفي البعض الى الداخليّة . وكان الحلّ والربط بيد جمال باشا يتصرّف بحكمهِ كيف يشاء ويُساعدهُ في تنفيذ اموره مجلس عرفي اقامهُ في عاليه

وكان والي بيروت عزمي بك اتى خلفاً لسامي بكر فجرى على مثال جمال باشا وتتبّع كلّ من كان يراهُ مخالفاً لسياسة الدولة او لنقض رسومها فيعاقبهُ اشدّ المعاقبة لا يراعي في ذلك وجيهاً او رئيس طائفة . وحُرمت الناشئة نعمة التعليم ما خلا بعض المدارس الابتدائيّة او التركيّة الصبغة

وفي اوائل تشرين الاول اذ حطّت الحرب الكونيّة اوزارها وكان الظفر للدول المتحالفة برح الاتراك بيروت فأسرع الامير فيصل ابن حسين ملك الحجاز لبسط سلطة عربيّة على كل سورية بموازرة الدولة الانكليزيّة فدخل بيروت وحاول ان يحكم عليها . ولم يلبث ذلك السحاب أن انقشع وجُعل الانتداب على بلاد الشام في عهدة فرنسة . وكان القاضي على الحكم العربي واقعة خان ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠

وكان الجنرال غورو اول مفوّض سام على سوريّة فإجابةً الى رغبة السكّان والى طلب غبطة البطريرك المارونيّ الياس الحويّك الذي تجشّم السفر الى باريس لهذه الغاية أُعلن في غرّة ايلول سنة ١٩٢٠ استقلال لبنان الكبير مع مدنهِ الساحليّة شمالاً وبلاد البقاع جنوباً وجُعلت بيروت عاصمتهُ . فعاد الى البلاد هدوّها وسلامها . وخلف الجنرالَ غورو الجنرال ڤيغان يشبههُ فضلاً وشهامةً قرّر اعمالهُ وكمّلها واكتسب ثقة اهل الوطن عموماً على اختلاف اديانهم ونزعاتهم فكان يوم رجوعهِ الى فرنسة يوماً مشهوداً اعرب فيهِ جميع الوطنيّين عن شكرهم لشخصهِ وأثنوا على سائر اعمالهِ متمنّين ان يعود اليهم آسفين على فراقهِ

وزاد أسفهم اذ رأوا خطّة خلفهِ الجنرال سرّاي الذي أتى البلاد وهو يجهل احوالها واستبدّ برأيهِ في تدبير دولة لبنان وغيّر حاكمها وفضّ مجلسها فلم تلبث ان وقعت فيها القلاقل والاضطرابات فانتشرت خصوصاً في دمشق وحوران فحدثت

تلك الثورات والفتن التي لم تهدأ تماماً حتى بعد استدعاء الجنرال سرّاي ومجيء خلفهِ المسيو هنري دي جوفنل الذي جرى في اموره في هذه السنة بتعقّل وحزم

وكان خاتمة مآثره نحو لبنان الكبير انّهُ فوّض الى مجلسهِ أن يتّخذ لهُ دستوراً ويختار لتدبير اموره هيئة حاكمة . فكان اختيارهم للهيئة الجمهوريّة يشترع فيها مجلس مندوبين ومجلس شيوخ ويمثّلها رئيس يُختار لثلث سنين فتمّ ذلك في عيد العنصرة من السنة الحاليّة ١٩٢٦ وأُعلن بالجمهورية اللبنانيّة يوم الاحد ٢٣ ايار وبرئيسها يوم الاربعاء ٢٦ منهُ مع بقاء بيروت كعاصمة الجمهوريّة

وما لا شكّ فيهِ انّ الانتداب الفرنساوي أدّى للبلاد خدماً جليلة ماديّة وادبية واقتصاديّة في هذه السنين الاخيرة لا يقوى اللسان على شكرها وإنْ وقع من بعض افرادهِ اغلاط تُغتفر في جانب الكثير من النعم التي اسبغتها الدولة الفرنسويّة على سوريّة عموماً وعلى لبنان وعاصمتهِ خصوصاً

الباب الثاني : بيروت الدينيّة

١ رجال الدين

بلغت بيروت اوج رقيها ديناً وادباً في هذه الحقبة . فقد ظهرت مجالي الدين بمن احتلّها من اربابهِ وسكنوها بعد السنة ١٨٦٠ . فانّ قبل ذلك العام لم يستوطنها غير رئيسَي اساقفة بيروت على الروم الكاثوليك والروم الاورثذكس . فبعد حوادث تلك السنة أصبحت بيروت مركزاً لنيابة القصاد الرسوليين الذين كانوا سابقاً يسكنون في لبنان في عينطورا وزوق ميكائيل فاتّخذوا لهم داراً واسعة قريباً من ساحة الشهداء شرقيها . ثم باعوها وانتقلوا الى دار القصادة الحاليّة في رأس بيروت . وقد سبق لنا ذكر اعمالهم في مقالة افردناها لتاريخ القصادة الرسوليّة في سوريّة (اطلب المشرق ١٢ [١٩٠٩]: ١—٢٤)

وكذلك رؤساء اساقفة الموارنة عدلوا عن السكنى في عين سعادة واستوطنوا

بيروت كرسيّ اسقفيّتهم منذ الطيّب الذكر المطران طوبيّا عون الى هذا العهد (اطلب تاريخهم في المشرق ٧[١٩٠٤]: ١٠٩٩)

واتّخذ السيّد المرحوم ثاوفيلوس قنـدلفت بيروت كمركز للنيابة البطريركيّـة السريانيّة سنة ١٨٨٦ . وازداد شرف اهلها السريان منذ جعل غبطة السيّد اغناطيوس افرام الثاني البطريرك الانطـاكي بيروت مركزاً لسكناهُ بتفويض من الكرسيّ الرسولي. فأصبحت كقطب الطائفة السريانيّة المنتشرة من اقصى العراق الى وادي النيل ويسكن اليوم بيروت اسقف ارمنيّ كاثوليكيّ وفيها نائب بطريركي للطائفة الكلدانيّة

اما الرسالات اللاتينيّة فبعد الفرنسيسيّين والكبوشيين واللعازريين واليسوعيين الذين مرّ ذكرهم في الفصول السابقة لم يحتلّ بيروت سوى اخوة المدارس المسيحيّـة سنة ١٨٨٩. لهم فيها مدرسة كبيرة زاهرة على طريق النهر ومدرسة ثانية متوسّطة في رأس بيروت مع تعليمهم للفقراء في مدرسة جمعيّة مـار منصور دي بول. وكذلـك لاخوة مريم او الماريست في بيروت مركز لوكالة رسالتهم في انحاء سوريّة

اما الراهبات فلم يكن منهنّ في بيروت السنـة ١٨٦٠ غير راهبـات المحبّة. وكانت راهبات القديس يوسف ذي الرؤية (St Joseph de l'Apparition) حللنَ زمناً ببيروت سنة ١٨٤٧ ثم غبنَ عنها الى السنة ١٨٧٢ فعُدنَ اليها بدعوة السيّد يوسف ڤالرگا. وسبقتهنّ ١٨٦١ الراهبات المريمات المعروفات في يومنا براهبات قلبي يسوع ومريم وتبعتهنّ سنة ١٨٦٨ راهبات الناصرة وسكنّ مدّة شرقيّ دار الوجيـه المرحوم موسى فريج ثمّ انتقلنَ الى ديرهنّ العامر بجوار الاشرفيّة

واقرب منهنّ عهداً في بيروت راهبات العائلة المقدّسة اللواتي قدمنَ بيروت سنة ١٨٩٤ بدعوة الطيّب الذكر المطران يوسف الدبس ثمّ استقْلَلْنَ بالعمل بعد حين. وحلّت ايضاً في بيروت مدّةً راهبات الراعي الصالح

وفي السنة ١٨٩٨ كان وصول راهبات السجود الى بيروت فعطّرنَ المدينة بقداسة سيرتهنّ الى هذه الأيّام حيث قُضي عليهنّ بالانصراف عن عاصمة لبنان في شهر أيّار الاخير فكان لسفرهنّ سوء تأثير في قلوب الجميع

وفي السنة ١٩٠٨ سُرّ اهل بيروت باحتلال راهبات جمعيّتين أُخرَيين وجدوا فيها مثال البرّ والحنان نريد بهنّ راهبات محبّة بيزانسون وراهبات الفقراء العُجّز المعروفات ببنات امّ الاوجاع. ولكلتيهما من المآثر الطيبة ما يعرفهُ القاصي والداني

واقربهنّ عهداً راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات اللواتي انشأهنّ غبطة البطريرك ماري الياس الحويك فاستوطنّ بيروت بعد الحرب. ثمّ راهبات الحبل بلا دنس الارمنيّات

وممّن قدم الى بيروت من غير الجمعيّـات الرهبانية الكاثوليكيّة السيّـدات والاوانس البروتستانيّات المعروفات بالدياكونس كان دخولهنّ بيروت في اواخر السنة ١٨٦٠ . وفي تلك السنة انشأت السيـدة طومسون اوّل مدارسها الانكليزيّة في بيروت . وللروم الاورثذكس جماعة من الراهبات أُنشئت في بيروت في اواخر القرن السابق

وللبروتستانت في حاضرتنا مـا عـدا الارساليّة الاميركية جماعات صغيرة أُخرى تنتمي الى مـذاهب مختلفـة كاللوثرانيين والانكليكان والاسكتلنديين والعمدانيين وغيرهم لكل منها مذهب في المعتقدات وعادات متباينة ومراكز خاصة

٢ الابنية الدينية

بتوفّر السكان في بيروت وجب ايضاً توفير المعاهد الـدينية فيها. وقد امتازت الطوائف الكاثوليكيّة بابنيتها الدينيّة في هذا العهد الاخير. فبعد كنيسة النبي الياس للروم الكاثوليك بمساعي غبطة البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٤٩ وكنيستي مار لويس للمرسلين الكبوشيين والحبل بلا دنس للآباء اللعازريين تشيّـدت في اثر حوادث السنة الستين كنائس أُخرى جميلة يفتخر بها الكاثوليك. فشيّـد اليسوعيُّون كنيستهم الفخمة على اسم القلب الاقدس سنـة ١٨٧٥ وابتنى الموارنة كنيسة مار مـارون ثمّ كنيستهم الكاتدرائية الكبيرة على اسم القـديس جرجس بهمّة راعيهم المثلث الرحمات المطران يوسف الدبس ألحقتا بعد مدّةٍ بكنيستي مار ميخائيل شرقي بيروت ومار الياس غربيّها . واقام السريان كنيستهم اللطيفة على اسم القديس جرجس. والروم الكاثوليك على اسم البشارة واسم المخلّص والارمن على اسم النبي اليـاس

هذا الى كنائس ومعابد اخرى خصوصية ضمن الاديرة والمدارس كمثل كنيسة دار القصادة الرسولية وكنيسة قلب يسوع لراهبات الناصرة وكنيسة مدرسة الحكمة وكنيسة جمعية مار منصور وغير ذلك مما يطول ذكره . وسترى بيروت بعد بضعة اسابيع كنيسة اخوة المدارس المسيحية من اجمل الكنائس وارحبها

وكذلك الروم الاورثذكس جدّدوا كنيستهم الكبيرة على اسم مار جرجس وزيّنوها بالصور البديعة واقاموا كنائس اخرى على اسم العذراء الطاهرة ومار نيقولاوس . ومثلهم الارمن الغريغوريون جنوبي السراية

وعني الاميركان بهندسة كنيستهم الملاصقة مطبعتهم القديمة واقاموا في كلّيتهم كنيسة لطلبتهم واسعة الارجاء شبيهة بقاعة كبيرة

ولم يَنِهِ المسلمون عن مبانيهم الدينية فشادوا عدّة مساجد في البسطة ورأس بيروت وتحت دير الناصرة وعند حرج الصنوبر على طريق صيداء تشرف عليها مآذن لطيفة البناء

فكل هذه المباني الدينية تنطق بلسان حالها وتشير الى ما لاهل بيروت من الغيرة في امورهم الروحية والحرص على وديعة الايمان الثمينة التي ورثوها من اجدادهم

٣ الاعمال التقوية والخيرية

وهو الدين الذي يُلهم اصحابهُ انشاء المشروعات التقوية والخيرية . منها الاخويات التي سعى خصوصاً بتأليفها المرسلون ومن جرى على مثالهم . فانّ للآباء اليسوعيين منها قسماً صالحاً بعضها لأعيان البلد كأخويّة الحبل بلا دنس وبعضها للعملة كأخوية الام الحزينة وبعضها للنساء كاخوية الميتة الصالحة ومنها للشبّان والفتيات وللصانعات في كنيستهم وكنائس اخرى . وللطوائف الكاثوليكية من موارنة وروم كاثوليك وسريان مجتمعات تقويّة كالاخويات تبعث روح الدين وتنمي التقى والعبادة

وفي هذه الحقبة جرت عادة الرياضات السنويّة التي يتخلّى فيها المؤمنون تارةً منفردين وتارةً مجتمعين تُلقى عليهم التأمّلات في الحقائق الدينية فينيبون الى الله ويزهدون بشهوات العالم . ومثلها المحاضرات والمواعظ في أيام الصوم استعداداً لعيد

الفصح . وزد على ذلك الحفلات الدينية كالرياضات والطواف بالقربان الاقدس والزيارات الجمهوريّة لمعابد البتول

واوفر منها المشروعات الخيريّة كشركة مار منصور دي پول وشركات خيريّة لكلّ طائفة من الطوائف بعضها لمساعدة المنكوبين وبعضها لدفن الموتى ومنها لصيانة الفتيات وزيارة المحبوسين

وما قولنا بالمستشفيات العديدة التي توفّرت في احياء بيروت المختلفة وقد امتازت بينها مستشفيات راهبات المحبّة ومآويهنّ ومياتمهنّ ومستوصفاتهنّ

وكلّ يعرف ما لراهبات القديس شرل وراهبات الفقراء العجَز من الفضل العميم في خدمة المرضى والمسنّين حتى انّ زائري مقامهنّ لا يتمالكون من العجب والاندهاش لدى نظرهم ذاك التفاني الغريب في خدمة البؤساء والتاعسين

ومنذ اربع سنوات فُتح مستشفى آخر جديد لاحق بمكتب الآباء اليسوعيين الفرنسويّ الطبي تقوم بكل لوازمهِ راهبات مار يوسف الفرنسويّات من ليون

وللروم الاورثذكس مستشفى بُنيت لهُ تحت مقبرة مار متري ابنية فسيحة تحت ادارة لجنة خاصّة ونساء ممرّضات

ومن اقدم المستشفيات المستشفى اللاحق بالكلية الاميركانية هو منظّم على مثال المستشفيات الراقية لهُ عدّة فروع على حسب اختلاف المعالجات ثمّ المستشفى العسكري

الباب الثالث : بيروت الادبية

كما الدين كذلك الادب صار منهُ لبيروت السهم الفائز حتى فاقت على حواضر الشرق وقاربت الشبه ببعض عواصم الغرب

الى السنة ١٨٦٠ كانت الاداب والعلوم منحصرةً في نطاق ضيق فاخذت في الاتساع بعد ذلك حتى بلغت ما نراها عليهِ اليوم من الرقي العجيب

« المدارس » وكان اوّل ما سُدَّ به الخلل انشاء مدارس وطنية واجنبية ارقى درجةً من العهد السابق . فمن المدارس الوطنية ما انشأهُ المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ فكان لها السبق بين المدارس الوطنية فادارها هو وابنهُ سليم عدّة سنين . وفي

السنة ١٨٦٥ وضع البطريرك غريغوريوس يوسف اساس المدرسة البطريركية على قمة حي المصيطبة فاقبل اليها التلاميذ من سورية والبلاد المجاورة كفلسطين ومصر وقبرس ولم تزل من ذاك الحين تشرّف الوطن بخدمها المتواصلة في سبيل العلم والادب

ونحت نحوها مدرسة الحكمة التي انشأها السيّد المفضال المطران يوسف الدبس سنة ١٨٧٦ وذكرنا اخيراً الاحتفال بعيد يوبيلها الخمسيني

وانشأ الروم الاورثذكس في السنة ١٨٦٥ مدرستهم الوطنية المعروفة بالثلثة الاقمار علّم فيها بعض ادباء طائفتهم ولا تزال عامرةً الى يومنا

وكذلك المسلمون عزّزوا مدارسهم نخصّ بالذكر منها المدرسة الرشديّة والمدرسة العلمية والمدرسة العثمانية والكلية الاسلامية التي جرى في العام الماضي ١٩٢٥ الاحتفال بالعيد الذهبي لرئيسها المفضال الشيخ احمد عباس الازهري

وفي السنة ١٨٧٥ انشأ زاكي كوهن لاهل ملّته الاسرائيليّة مدرسةً خدم بها العلم والادب ٢٤ سنة ثمّ خلفتها مدرسة الاتحاد الاسرائيلي

ومن مدارس الاناث الوطنية المنشأة في هذه المدّة مدرسة راهبات قلبي يسوع ومريم منذ نيف وستين سنةً . وكذلك مدرسة السيّدة اميلي سرسق الوطنيّة فُتحت سنة ١٨٨٠ ومدرسة راهبات الروم الوطنيات . وباشرت الراهبات المارونيات بمدرستهنّ سنة ١٩٢٢

أمّا المدارس الاجنبيّة فبفضلها أُنشئت الكليّتان الاميركيّة واليسوعيّة . أُنشئت الاولى سنة ١٨٦٦ والثانية سنة ١٨٧٥ ولكلتيهما فروع متعدّدة فللاولى القسم الاعدادي والعلمي والتجاري والطبي . وللثانية القسم الفلسفي واللاهوتي والاعدادي، ثمّ الحقوق والهندسة والطبّ بكل متعلّقاته

ومن المدارس الاجنبيّة مدرستان كبيرتان لجماعة اخوة المدارس المسيحية اكتسبتا ثقة الاهلين بحسن تدبيرهما وتعليمها فتزاحم فيها الطلبة

اما الاناث فقد سبق ذكر مدرسة راهبات المحبّة القريبة من ساحة البرج . ثمّ أُضفْنَ اليها مدرستين اخريَيْن في حيّ الرميلة وفي رأس بيروت

ولراهبات الناصرة مدرسة راقية لاوانس المدينة قطعت ايضاً شوطها الخمسيني وأحدث منها عهداً مدارس راهبات العائلة المقدّسة وراهبات محبّة بيزانسون .

ولكلهنّ مآثر عديدة لا يفي بشكرها لسان الاهلين

هذا ما عدا العدد العديد من المدارس الابتدائيّة منها وطنيّة وطائفيّة ومنها اجنبيّة تجدها في كلّ حيّ من احياء المدينة فلم يَعُد من عذر لمن يرغب العلم والتهذيب في عاصمة لبنان

﴿المطابع﴾ قد وضعنا سابقاً فصولًا مطوّلة في تاريخ فنّ الطباعة في بيروت وانحاء سوريّة فعلى من اراد الوقوف على تاريخها ومنشوراتها ان يراجع في المشرق ما قيل عنها في اعداد السنين الثلاث ١٩٠٠ الى ١٩٠٢

وقد استجدّت منذ عشرين سنة في بيروت بعض المطابع فاستبدل الاميركان مطبعتهم على الحروف باللينوتيب . وأُنشئت مطابع جديدة تامّة الاهبة كمطبعة الآباء الكبوشيين المعروفة بجان درك ومطبعة جدعون ومطبعة يوسف صادر ومطبعة مكتبة اخيه سليم ومطبعة فزما والمطبعة الفرنساوية ومطبعة الثبات ومطبعة الاجتهاد ومطبعة النهضة والمطبعة الاهليّة والمطبعة العصريّة وغير ذلك ممّا لم نقف على اخباره

﴿المجلّات والجرائد﴾ راجت في بيروت سوق الصحافة بعد السنة ١٨٦٠ وهذه اسماء المجلّات التي صار لها بعض التأثير في الآداب العربيّة : الزهرة ليوسف الشلفون والجنان لبطرس البستاني . والنشرة الاسبوعيّة للارساليّة الاميركانيّة (١٨٧٠) ومجلة المقتطف لنمر وصروف وابكاريوس (١٨٧٦) ثمّ نُقلت الى مصر . ومجلّة الطبيب للدكتور جورج بوست (١٨٧٨) والصفاء لعليّ ناصر الدين (١٨٨٦) والكنيسة الكاثوليكية (١٨٨٩) ثم المشرق (١٨٩٨) للآباء اليسوعيين . ثمّ الكليّة للجامعة الاميركانية (١٩٠٥) والجسمانية للآباء اللعازريين (١٩٠٧) . وظهرت بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٩ مجلّة الحسناء لجرجي نقولا باز والنبراس للشيخ مصطفى الغلاييني والكوثر لبشير رمضان . وفي السنة ١٩١٠ روضة المعارف لجميل العظم والحقوق للمحامي نجيب خلف والنديم لشاكر عون . وفي السنة ١٩١٣ صديق العائلة للآباء الكبوشيين ومجلة الرسالة للمرجوم الاب لويس دريان . وممّا ظهر بعد الحرب الحارس لامين غريّب والمعارف لوديع نقولا حنّا ورسالة قلب يسوع للآباء اليسوعيين ومجلة المرأة

أمّا الجرائد فكادت تبلغ في هذه المدّة المئة عدّاً اخصّها في القرن التاسع عشر حديقة الاخبار لخليل بك الخوري سبقت السنة ١٨٦٠ . ثمّ تبعها في بيروت

البشير للآباء اليسوعيين (١٨٦٩) ثمّ الجنّة والجنينة لسليم ونجيب البستاني (١٨٧١) ثمّ التقدّم ليوسف الشلفون (١٨٧٤) وثمرات الفنون لعبد القادر القبّاني (١٨٧٥) ثم لسان الحال لخليل سركيس (١٨٧٧) ثم المصباح لنقولا النقّاش (١٨٨٠) والهديّة والمنار للروم الاورثذكس ثمّ بيروت الرسميّة (١٨٨٨) ثمّ الاحوال لخليل البدوي (١٨٩١) ثمّ لبنان لابرهيم بك الاسود والمحبّة لفضل الله ابي الحلقة (١٨٩٩)

ومنذ القرن العشرين الى هذا العهد ظهر في بيروت الاقبال لعبد الباسط الانسي (١٩٠٢). ثمّ تعدّدت الجرائد بعد اعلان الدستور فظهر منها سنة ١٩٠٨ البرق لبشاره عبدالله الخوري والوطن لشبلي ملّاط والثبات لاسكندر الخوري والاتحاد العثماني لاحمد حسن طباره. ومن السنة ١٩٠٩ الى الحرب ظهر في بيروت الحقيقة لحسن الناطور والمفيد لعبد الغني العريسي وابابيل لحسن محيي الدين جبّال والنصير لعبّود ابي راشد والراوي لطانيوس عبده والرأي العام لطه المدوّر والبلاغ لمحمّد باقر والاخاء العثماني لمحمّد شاكر الطيبي. وبطل كثير من هذه الجرائد في ايّام الحرب الكونيّة وبعد الحرب عاد بعضها الى الحياة كالاحوال والبشير والبلاغ والبرق والوطن واستجدّ غيرها كالارز التي نُقلت الى بيروت وكالحقيقة والبرق والشعب والاخاء والمنبر والحريّة وغير ذلك ممّا حُرّر بالافرنسيّة

«المطبوعات الادبية» امتازت بيروت بمطبوعاتها التي انافت بعد السنة ١٨٦٠ على الالوف وقد عددنا في تاريخنا عن الطباعة لكل مطبعة ما عرفناهُ لها. فلا يسعنا هنا إلّا الاشارة الى هذه المطبوعات بوجيز الكلام

في هذه الحقبة نُشر في بيروت معظم الكتب النصرانية الشائعة بين الطوائف المسيحية وفي مقدمتها الكتاب المقدّس طُبع مبتورًا في المطبعة الاميركيّة وكاملًا في مطبعتنا الكاثوليكية ثم الكتب الطقسية لاسيا الروم الملكيين الكاثوليك والروم الاورثذكس كالسواعيات ورتب القداس والافخولوجيون والميناون والتبيكيون. ومثلها الكتب الطقسية المارونية التي طُبع قسم كبير منها في مطبعتنا الكاثوليكية وفي المطبعة العمومية لرزق الله خضرا بالعربيّة او بالسريانيّة. وكذلك بعض كتب السريان الكاثوليك. يضاف الى هذه الكتب الطقسية شروحها كمنارة الاقداس للدويهي وتفسير القدّاس ليواكيم مطران والقصارى للمطران يوسف داود

وفي هذه السنين نُشرت في بيروت ايضاً معظم التواريخ الطائفيّة كتاريخ الموارنة للدويهي وتاريخ الروم الملكيين للسيد غريغوريوس عطا وتاريخ السريان للسيّد ديونسيوس نقّاشه والفيكونت فيليب دي طرّازي والقس اسحق ارملة وتاريخ الكلدان للطيب الاثر السيد ادّي شير. ومثلها اخبار بعض الرهبانيّات كالرهبنة المخلّصية والرهبنة البلديّة والرهبنة الانطونيانيّة

وطُبعت ايضاً كتب دينيّة شتى بعضها لاهوتية نظريّة ولاهوتيّة ادبية وتفاسير على الانجيل والرسائل وبعضها فلسفية او حكميّة ووعظية وكثيرٌ منها سيَر قديسين وكتب روحيّة لتقديس الحياة كالتأمّلات والكتب التقويّة والعبادات

ومن مطابع بيروت خرج ايضاً عددٌ لا يُحصى من الكتب المدرسيّة كمبادئ العربية وتعليم اصولها الصرفيّة والنحويّة والبيانيّة والمنطقيّة لليازجيين والبستانيين والشرتونيين كان الفضل في نشرها للمطبعة الاميركانيّة والمطبعة الادبية ومطبعتنا الكاثوليكية ومطبعة صادر

وطبع الاميركان خصوصاً لكليّتهم كتباً علمية شتى في الطبيعيات والرياضيّات والهيئة والكيميا والطب توقّفوا عنها لمّا عدلوا الى تعليمها باللغة الانكليزيّة

وممّا عُنيت به خصوصاً مطبعتنا الكاثوليكية نشر الكتب الادبية منها قديمة ومنها حديثة كمجاني الادب وعلم الادب ومنتخبات الاغاني ومقامات بديع الزمان ورسائلهِ ونظم امثال الميداني للشيخ ابرهيم الاحدب. ومنها دواوين كالاخطل والخنسا وابي العتاهية والسموأل وحماسة البحتري ونقائض جرير والاخطل والمفضليات ورياض الادب وشعراء النصرانيّة وديواني المطران فرحات والخوري نيقولا الصائغ وكثير منها لغويّة كالمعجمين اقرب الموارد والمنجد وكنوادر ابي زيد والالفاظ الكتابية وفقه اللغة والكنز اللغوي وتهذيب الالفاظ لابن السكّيت والبلغة في شذور اللغة. وبعضها تاريخيّة كتاريخ مختصر الدول لابن العبري وتاريخ الوزراء للصابي وتاريخ دمشق لابن القلانسي وتاريخ ولاة مصر وقضاتها للكندي وتاريخ ابن بطريق وتاريخ المنبجي وتاريخ ابن الراهب وتاريخ بيروت وتاريخ حلب وتاريخ لبنان وكالنصرانيّة وآدابها في عهد الجاهليّة والآداب العربيّة في القرن التاسع عشر. ومنها

لدرس اللغات الشرقيَّة والغربيَّة كاللاتينيَّة والافرنسيَّة والسريانيَّة والارمنيَّة والقبطيَّة والحبشيَّة

أضف اليها ما طُبع في غير مطبعتنا من الكتب الادبية واللغويَّة والتاريخيَّة كمحيط المحيط وقطر المحيط ودواوين البحتري وابي تمَّام والمتنبي مع شرحهِ العرف الطيّب وسِيَر الملوك للاربلي ومقدّمة ابن خلدون واخبار الاعيان في جبل لبنان. وقطف الزهور في تاريخ الدهور وتاريخ اليونان وتاريخ مكدونيا والتاريخ القديم وتاريخ الصحافة العربية وملوك العرب وشرح ادب الكتّاب للبطليوسي والريحانيّات ورسائل المعرّي وتاريخ سوريَّة للمطران يوسف الدبس. ومنها كتب فلسفيَّة كالفوز الاصغر لابن مسكويه وتفصيل النشأتين للراغب الاصفهاني والفلسفة النظريَّة للكردينال مرسيه وميزان الحق واصل الانسان والكائنات الخ

فهذه ومطبوعات اخرى غيرها شاهدٌ باهر على ما كان لبيروت من الحصَّة الوافرة في تعزيز الآداب العربية

والى بيروت ايضاً يعود الفضل في انشاء المكاتب وغُرف القراءة والنوادي العلميَّة والمتاحف واقامة الحفلات الادبية وتمثيل الروايات تشاركت فيها الارساليَّات الاجنبيَّة والجمعيَّات الوطنيَّة حتى اصبحت بيروت في اعين القاصي والداني كمركز النهضة الادبية في العالم العربي لولا ما اصابها من الانحطاط في ايَّام الحرب الكونية وهي ساعية اليوم في استرجاع مقامها السابق

وفي ختام هذا الباب يسرُّنا ان نذكر انشاء اوَّل مكتبة عموميَّة في بيروت. كان الساعي الى تحقيق هذا الامر الخطير جناب الفيكنت فيليب دي طرَّازي بعد الحرب الكونيَّة بمساعدة رجال الانتداب الفرنساوي لاسيما الجنرالَين الكبيرين غورو وفيغان. وقد تكلَّف جناب منشئ العمل عناء ومشاقّ كبيرة ليخرج فكرهُ الى حيز الوجود وتجشَّم الاسفار الى فرنسة فاستوهب كثيراً من مصنفات علمائها فزان بها هذا المعهد الجديد وقد اصبح البيروتيون مَدينين لعنايتهِ في هذا المشروع الجزيل الفائدة

على انَّ بيروت لم تخلُ بعد السنة ١٨٦٠ من مكاتب اخرى خصوصية كان العلماء يمكنهم استرخاص اصحابها لمطالعة كنوزها الادبيَّة نزيد خصوصاً مكتبة الكليتين الاميركيَّة واليسوعيَّة فالاميركيَّة احتوت نحو ٢٠٠٠٠ مجلد كان يغلب عليها الكتب

ثمانية امتار الى ١٢ متراً في وسطهِ ومن ٣ الى ٥ امتار قريباً من الرصيف. فيمكن كبار السفن ان تدخل وسطهُ لكنها لا تستطيع ان تفرغ السلع توًّا على الرصيف. وبقيت الشركة عدَّة سنين لا تربح من واردات المرفأ ما كانت تؤمّلهُ لارتفاع التعرفة المفروضة على المراكب الراسية فيهِ. ثمَّ تحسَّنت امورها وزاد اقبال الشركات التجارية على الرسوّ في المرفإ. وبعد ان خمدت حركتهُ في ايَّام الحرب عاد اليوم الى نهضة جديدة حتى مسَّت الحاجة الى توسيعهِ والشركة حاضراً تهتمّ بذلك ولا يلبث المرفأ ان يجاري اكبر مرافئ البحر المتوسّط. ولهُ في رأس بيروت منارة جميلة بناها سنة ١٨٦٢ مهندسون فرنسويُّون.

﴿ جرّ مياه نهر الكلب ﴾ كانت بيروت تستقي مياهها من آبارها الواسعة التي اليها يُنسب اسمُها ولا تزال آثارها باقية حتى عهدنا. إلّا انَّ تلك الآبار مع وفرتها لم تكن لتكفي لحاجات المدينة من شرب ونظافة وسقي جنائن ورشّ طرقات. ثمَّ انَّ تلك الآبار المجموعة من الامطار كانت تجري اليها مياه ملوَّثة بالجراثيم الفاسدة التي كانت تنشر بين اهلها من وقت الى آخر الاوبئة الجارفة من حُمّيات تيفونيدية وهيضة وهواء اصفر وطاعون

وكان اوَّل من فكَّر في تموين بيروت بالمياه المهندس الفرنسوي المسيو تڤنين (M. Thévenin) فألّف لذلك شركة بدأت باستحضار لوازم العمل سنة ١٨٧٥ وبناء حواجز وأقنية عند نهر الكلب على ١٣ كيلو متراً من بيروت وادوات لتصفية المياه ودفعها الى خزّان على مقربة من كنيسة مار متري. وفي السنة ١٨٧٦ خلفتها شركة انكليزية لمواصلة هذا العمل واستثمارهِ بعد ابتياعهِ منها المسيو تڤنين. فتولَّى الانكليزي مرتندال (M. Martindale) تدبيرها برأس مال بلغ ٣،٦٢٨،٨٠٠ فرنك. واخذت توزّع المياه على بيروت سنة ١٨٨٤. فكانت هذه النعمة من اكبر نعم الله على المدينة واهلها فكفَّ عنهم معظم الاوبئة الفاشية. وما مرَّ على الشركة خمس عشرة سنة حتى بلغ ربحها السنوي الخالص ٢٥٠،٠٠٠ فرنك. ثمَّ زاد على ذلك فجدّدت رخصتها عند نهاية معاهدتها. وبعد الحرب اقامت خزّاناً جديداً فوق الاشرفيَّة بحيث تستطيع رفع المياه الى اعلى بيوت بيروت وجهاتها

﴿ الغاز والكهرباء ﴾ وممَّا زاد في محاسن بيروت انشاء شركة الغاز التي نفت

نوعاً من ظلمات بيروت ثمّ عقبتها شركة الكهرباء التي جعلت لبيروت حظاً جديداً من الحضارة العصريّة

﴿التجارة﴾ انّ رقيّ البلاد المادي يُعرف خصوصاً بتجارتها ومن هذا القبيل قد بلغت بيروت مبلغاً لا تجاريها فيه غيرها من مدن الشام منذ السنة ١٨٦٠ . فانّ السفن الاجنبيّة كانت تنقل اليها كلّ محصولات الدول الاوربية ومصنوعات اهلها من كل صنف من اصناف الاعمال والمخترعات الحديثة في ضروب الفنون. وكانت هي من جهتها تُرسل الى انحاء البلاد كلّ صادرات بلاد الشرق التي كان تجّار الداخليّة يرسلونها الى بيروت فتُنقل منها الى البلاد الغربيّة. وقد سبق انّ تجارة بيروت كانت في القسم الاول من القرن التاسع عشر راجت رواجاً كبيراً فبلغت الواردات اليها نحو ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ من الفرنكات والصادرات منها نحو ١٦،٠٠٠،٠٠٠ فلما بُني مرفأها ونجزت سكّتها الحديديّة حتى بلغت بعد حين ضعف هذه الكميّة

وقد ساعد على هذا النجاح انشاء المصارف (البنوك) في مقدّمتها البنك العثماني وبنوك اخرى منها اجنبيّة ومنها وطنيّة كانت تُسلف المال للتجار بفائدة معلومة فتمكّنهم من توسيع نطاق اشغالهم. ثمّ اخذت عدّة بيوت تجاريّة وطنيّة تتوسّط لاستحضار السلع الاوربيّة بصفة كوميسيونجيّة

وكذلك حصلت معاملات مع بيوت تجاريّة في حواضر الدول الاوربيّة كانت تُبادل محصولات بلادها من محصولات الشرق

وبعد ان خمدت الحركة التجاريّة في ايّام الحرب تحسّنت نوعاً بعد وضعها أوزارها. وقد استفادت بيروت خصوصاً من المعرض الذي أُقيم فيها سنة ١٩٢١ حيث ظهرت للعيان اصناف محصولات الوطن مع محصولات البلاد التي تعامل سوريّة. ولولا الازمة الاقتصاديّة التي تشمل حاضراً انحاء المعمور وهبوط سعر الفرنك والفتنة الدرزيّة لكانت بيروت في اوج الحضارة والدليل عليه ان الاحصاء الرسمي في السنة السابقة للحرب ذكر ان الواردات التجاريّة لسوريّة بلغت ١٢٥،٠٠٠،٠٠٠ فرنك والصادرات ٦٠،٠٠٠،٠٠٠ أمّا في السنة ١٩٢٠ بعد الحرب فازدادت الواردات الى ٤٧٩،٠٠٠،٠٠٠ ف والصادرات ٨٠،٠٠٠،٠٠٠ ولنا على ذلك شاهد في حركة مرفأ بيروت الدالّة على نجاح متواصل وارباح وافرة حتى في السنة الحاضرة ١٩٢٦

﴿الصناعة والزراعة﴾ استفادت الصناعة في بيروت بما اتاها في هذه السنين الاخيرة من الادوات الاوربية ومن محصولات البلاد. فأُنشئت فيها وفي جوارها معامل الحرير التي اخذت تسير في تحليل الحرير على اسلوب الفرنج

ومثلها الحياكة والتطريز للمنسوجات قد كان للطرائق الاوربيّة تأثير محسوس في صناعة هذه الانسجة لاسيما بواسطة راهبات المحبة اللواتي انشأن معملهنّ سنة ١٨٦٢ فبلغن من استحضار نحو ٥٠٠ متر من الانسجة الحريريّة البسيطة او الملوّنة

وكذلك اشغال الخروجة والدانتلات اتّسعت في بيروت حتى بلغ ما أُرسل منها الى اميركة قبل الحرب ما يساوي ٢٠٠،٠٠٠ ليرة

وأُنشئت ايضاً معامل لاثاث البيوت واجهزتها الفاخرة اخصّها في بيروت محل الخواجا ترزي ومعمل الخواجا الياس السيوفي الذي استحضر لذلك الادوات المخترعة في اوربّة واميركة

ودخلت بيروت معامل أُخرى مستحدثة على الاساليب الاوربيّة كالطاحن البخارية وكمعامل الجليد الاصطناعي ومعامل لفائف التبغ والمعامل الفخّارية وتجدّدت كذلك السكافة والحدادة والنحاسة وتوفّرت فيها الدرّاجات والسيّارات والاوتوموبيلات

وكذلك اشتغل اصحاب البناء في بيروت بكل لوازم هذا الفنّ من انشاء مقالع واستحضار ضروب الحجارة الوطنيّة والاجنبيّة وصقل الرخام ونقشه وصنع الكلس والقرميد. ولنا عدّة آثار بنائيّة تشهد لاهلها بحسن الذوق وصواب النظر لتطبيقها على المظاهر الجوّيّة من حرارة وبرودة ومهبّ الرياح ومناظر بهجة بينها قصور فخمة ودور امراء وبنايات شرقيّة الهندسة كساعة بيروت واسواقها الحديثة

وما قولنا عن المطابع فانّها بعد السنة ١٨٦٠ تعدّدت فاناف عددها على الثلثين كانت في مقدّمتها مطبعتنا الكاثوليكيّة والمطبعة الاميركانيّة مع ما أُلحق بهما من المطابع الحجريّة والادوات لاستحضار الابهات والأمّهات ولسبك الاحرف. وذلك ما جعل لبيروت شهرة واسعة في البلاد بحسن مطبوعاتها وجمال حروفها

وكلّ يعرف اتّساع فنّ التصوير الذي قبل السنة الستين لم يكد يُعرف له اثر في بيروت واليوم اصبح شائعاً حتى انّ بعض المجلات تصدر اليوم فيها مصوّرة باتقان وربّما عُرضت هذه الصور في معاهد السينما

[illegible]

[illegible]

على أنَّ كل هـذه الصنائع مع ترقّيها لا تزال في احتياج الى مزيـد التحسين لتجاري المصنوعات الاوربيَّة

أمَّا ﴿ الزراعة ﴾ فانَّ نصيبها دون نصيب الصنـاعة في الترقّي وان لم تُحرَم منهُ تامًا. فانَّ حدائق بيروت واراضيها المزدرعة قد زادت خصباً بما استمدَّتهُ من مياه نهر الكلب للسقي. وكذلك مياه اخرى تجري الى المزروعات من نهر بيروت وبعض العيون المجاورة للبلدة. وهذا ما وفَّر البقول والحبوب في اسواق المدينة

وقد نمت خصوصاً في بيروت وارباضها انواع الاشجار المثمرة فترى وسطها وحولها اصناف الاشجار المثمرة منها الاثمار الوطنيَّـة كالليمون والتفّاح والاجّاص والمشمش والدراقن والتين والخرنوب. ومنها اجنبيَّة تأهلت منذ بضع سنوات في تربة بيروت بعد ان انتقلت اليها من البلاد الغربيَّة او من اميركة كالموز والمـاندارين (يوسف افندي) والقشطة والتوت الفرنجي (fraises) والاكي دنيا (nèfles)

ومن اشجار بيروت التي تزين سواحلها شجر الزيتون الـذي يمتدُّ جنوبيهـا الى بضعة اميال ويُستخرَج منهُ زيتها الفاخر. وكذلك الكروم التي تظلّل تلالها ومن عصير ثمارها الخمر البيروتيَّة التي اشتهرت منذ عهد الرومان

وعلى رأسها تتمايل اشجار النَّخل بسَعَفها المرموز بهِ الى الظفر. وفي جيرتها غابات الصنوبر التي تغنَّى بها قدماء الشعراء.

فمن تعدُّد اصناف هذه الاشجار يلوح غنى تربة بيروت. لولا انَّ المزارعين لثبوتهم على اساليب الحراثة القديمة لا يحصلون على ما يناله ارباب الزراعة في اوربة بمراعاتهم للاصول الفنيَّة التي وقفوا عليها بالتجربة ودرس احوال التربة واصلاحها

هذا مُجمل ما يقال عن بيروت الاقتصاديَّة. ولا شكَّ بأنَّ عاصمـة لبنـان مع الامان وانتظام الاحوال وهمَّة ارباب الاعمـال جديرة بان تُصبح من اغنى بلاد الله وتجاري اكبر المُدن بخصبها ورفاهها زادها تعالى رقياً ونموًا وهو السميع المجيب

(تمَّ)



ملحق

بكتاب

بيروت تاريخها وآثارها

قد وقفنا في اثناء نشرنا لهذا الكتاب على معلومات شتى تفيد معرفتها تاريخ بيروت فلم نشأ ان تُفقد هذه الشذرات فجمعناها في هذه النبذة كملحق لما سبق من الفصول. والدلالة في هذا الملحق على القسمين السابقين

الصفحة ٤ السطر ١٠ (نظر عامّ في تواريخ بيروت) يحسن بنا ايضاً ان نذكر بعض تآليف مختصرة ابرزها المحدثون في لغـات شتى عن بيروت واخبارها اقدمُها مقالة مستملحة وضعها باللاتينيَّة الالماني حنا ستروخ لينال بها في وطنهِ رتبة الدكتوريَّة سنة ١٦٦٢ عنوانها « J. Strauch : Berytus » فضمَّنها عدَّة معلومات لاسيما عن بيروت الرومانيَّة

ثم نشر داود افندي كنعان في مجلّة الجنان البيروتيَّة سنة ١٨٧١ تاريخاً مختصراً لبيروت دعاهُ «جواهر ياقوت في تاريخ بيروت»

وفي السنة ١٩١١ــ١٩١٢ نشر حضرة استاذ الكلية الاميركانيَّـة هرفي پركر مقالات انكليزيَّة في تاريخ بيروت طبعها على انفراد في كتاب صغير (H. Parker: History of Beirut)
Porter

وفي العام الماضي ١٩٢٥ نشر جناب الاستاذ المحامي جورج افندي يزبك محاضرة كان القاها في مربع تباريس عنوانها «بيروت في التاريخ» استعان فيها بتآليفنا السابقة

الصفحة ١١ السطر ٩–١٠ (مغارة انطلياس) نشر جناب الاستاذ داي نتيجة حفريّات قامت بها الجامعة الاميركيّة مؤخرًا في وادي انطلياس قريباً من مغارتها فبلغت الى عمق ١٥ مترًا وعثرت على ضروب من الظرّان ومن عظام الحيوان التي اصطادها القدماء. كما كان بيّن ذلك سابقاً العلّامة ترستَرام وحضرة الاب زُموفن (لا ذومغن كما تصحّف اسمهُ في الكليّة ص ٤٩٦). فليراجع ايضاً الفصل الذي كتبهُ العلّامة دي مورغان في مجلّة سيريا DE MORGAN: L'Industrie Néolithique dans le Proche Orient, *Syria*, IV, 36-37

ص١١ س ١٧ (انتهز)... النهزة

— ص ٣٧٣ س ١٨ (استشهاد القديس جرجس) كتبنا في ذلك مقالة واسعة بنسبة المئة السادسة عشرة لاستشهاده (في المشرق ٦ [١٩٠٣]: ٣٨٥ و ١٠ [١٩٠٧]: ٤١٤)

وممّا فاتنا ذكرهُ التقليدُ القائل باستشهاد القديسة بربارة في مدينة بيروت. واليهِ يشير صالح بن يحيى في تاريخهِ (ص ١٧): «ويزعم النصارى انّ البربارة كانت قديسةً ولها نشبٌ كبير ببيروت وعيد البربارة منسوب اليها». راجع فصلنا عن عيد القديسة بربارة في سوريّة (المشرق ١ [١٨٩٨]: ١١٣١–١١٣٩). وكان للقديسة بربارة كنيسة شهيرة في بيروت بقيت مكرّمة الى القرن الخامس عشر فاغتصبها المسلمون من النصارى وحوّلوها جامعاً كما ورد في تاريخ الاب فرنسيس سوريانو الراهب الفرنسيسي FR. SURIANO: Il Trattato di Terra Santa, 154, 162 وهو يروي (ص ١٧٨) انّ قبرها يكرم في احدى كنائس مريم العذراء في القاهرة (كذا)

ص ٢٧ س ١٠ (مدرسة الفقه الروماني في بيروت) خصصنا لذكر هذه المدرسة فصلاً آخر في المشرق (٢٣ [١٩٢٥]: ٧٢١–٧٣٣) وفيه نظر تاريخي انتقادي على تاريخ جديد لمدرسة بيروت الفقهيّة الرومانيّة نشرهُ احد كبار اساتذة الفقه المسيو بول كولينه تحت هذا العنوان PAUL COLLINET: Histoire de l'Ecole de Droit de Beyrouth وفيهِ معلومات واسعة عن بيروت وعلومها الفقهيّة ومشاهير اساتذتها وطلبتها. وممّن ذكرهم زكريّا الخطيبُ في اواخر القرن الخامس قزما

الكاهن خادم كنيسة الرسول يهوذا في بيروت. ومرتيريوس احد قرّاء كنيسة بيروت وبعض اعيان المدينة كيوحنّا بن قسطنطين وبوليكربوس.. ووصف بالغيرة يوحنّا اسقف بيروت في زمانهِ

الصفحة ٤١ السطر ٢٠ (حريق بيروت سنة ٥٦٠ م) قد ظهرت آثار هذا الحريق لمّا بوشر بالحفريّات في زمن الحرب الكونيّة بأمر الوالي عزمي بك قريباً من جامع يحيي في غربيّهِ فانكشفت بقايا كنيسة قديمةٍ من عهد البوزنطيين كان سواد الحريق ظاهرًا على حجارتها

ص ٤٨ س ١٠ (في عهد الدولة الاخشيديّة غزا الروم بلاد الشام...) قرأنا في احد مخطوطات مكتبتنا الشرقية ما حرفهُ:

«في جمادى الاولى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٥م) سار المملوك ناصر احد خدّام المعزّ لدين الله لمحاربة الروم فدخل بيروت ثمّ حارب الروم قريباً من طرابلس في شعبان فغلبهم الّا انّ ملكهم ابن الشمشكي (Zimiscès) عاد مع جيش من الروم وانتصر على المملوك ناصر واسرهُ فطلب منهُ الفتكين صاحب الشام اماناً للبلد فتهادنا... ثمّ جاء بعدهُ المملوك ريّان الى الشام وانتصر على الروم»

ص ٥٢ س ١٣ (الصليبيّون في بيروت) في زمن ولاية الصليبيين الاولى على الشام ألّف الشريف الادريسي كتابهُ نزهة المشتاق فذكر موقع بيروت «على ضفّة البحر وسورها المبني بالحجارة الكبيرة والجبل الواقع بقربة منها الذي يُستخرج منهُ الحديد الجيّد الكثير فيُحمل الى بلاد الشام». وكذلك ذكر غيضتها من اشجار الصنوبر على جنوبيّ المدينة فقال ان «تكسيرها اثنا عشر ميلًا في مثلها»

ص ٥٣ س ٤ (الاسطول المصري في بيروت سنة ٥٤٦هـ). قال ابن الميسّر في اخبار مصر (éd. Massé, p. ٩٦): «في تاريخ سنة ٥٥٢ (١١٥٧ م) ندب الملكُ الصالح (طلائعُ ابن رزيك) مراكبَ في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فاوقعت بمراكب الفرنج فاسرت منهم وغنمت». وفي هذه السنة عينها حدثت زلازل قويّة في الشام كما روى ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة فخربت بسببها مدن كثيرة من جملتها بيروت

ص ٥٣ س ٢٣ (تسلّم صلاح الدين المدينة) فتح صلاح الدين مدينة بيروت

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] (Zimisces) [illegible]

[illegible]

[illegible] (éd. Massé, p. 43) [illegible]

[illegible]

[illegible]

De Morgan: L'Industrie Néolithique dans le Proche Orient, Syria, IV, 36-37

[illegible]

[illegible]

[illegible] Fr. Suriano: Il Trattato di Terra Santa, 154, 162 [illegible]

[illegible]

[illegible] Paul Collinet: Histoire de l'Ecole de Droit de Beyrouth [illegible]

في آب من السنة ١١٨٧م بالامان . وقد مرَّ بها في السنة التالية ١١٨٨ السائح الرومي يوحنا فوكاس (Jean Phocas) فكتب في رحلتهِ عن بيروت ما تعريبهُ بعد سيره اليها من جبيل (١

«فلاحت لنا بعد ذلك بيروت المدينة الكبيرة وهي حافلة بالسكان تحيط بها البساتين ولها مرفأ شهير بحسنهِ. ليس هو من تكوين الطبيعة بل من عمل الصناعة وهو داخل في وسط المدينة على شبه الهلال. فترى برجين كبيرين قد شُيدا على طرفيهِ يمتدّ بينهما سلسلة ضخمة تصون من الغزاة المراكب التي في داخل الدائرة. وبيروت تُعد كحدّ لفينيقية ولسوريَّة»

الصفحة ٥٦ السطر ٩ (تحصين الصليبيين لبيروت) يؤخذ من كتبة الفرنج في ذلك العهد انَّ طول بيروت كان يبلغ نحو ٨٥٠ مترًا وعرضها ٦٠٠ متر (Rey: Colonies franques en Syrie)

ص ٦٠ س ٢٤ (مونغري دي مونفور) والصواب همفرى (Humfrey)

ص ٦١ س ١ (ارنلد) ويروى ايضاً على صورة رينلد او رينو (Renaud)

ص ٦١ س ١٠ (بيروت في عهد مماليك مصر) ورد ذكر بيروت في عهد مماليك مصر في تقويم البلدان لابي الفداء (ص ٢٤٧) فذكر لها برجين وبساتين ونهرًا ووصفها بالخصب ونقل عن ابن سعيد كونها «مدينة جليلة ولها ميناء جليل» وروى انَّ شرب اهلها من قناة تجرّ اليها الماء.

وذكرها بعدهُ في القرن الخامس عشر خليل بن شاهين الظاهري في كتابهِ زبدة كشف الممالك وروى انها من معاملة دمشق يحكم عليها امير طبلخاناة ويقول انَّ لها اقليماً بهِ عدَّة قرى

ص ٦٢ س ٢١ (البحث السابع) يُحذف هذا البحث الذي وُضع هنا غلطاً . ومكانهُ كما ترى في الصفحة ٦٧

ص ٧٥ س ٩ (صالح ناصر الدين) والصواب ابن ناصر الدين

ص ٧٦ س ٦—٧ (الغزَّالي) اسمهُ جانبردي الغزَّالي كان من امراء المماليك في

١) نُشرت هذه الرحلة باللاتينيَّة في المجلد الثاني لشهر أيار من اعمال القديسين للبولنديين (Acta Sanctorum, vol. II Maii, p. III)

مصر جعلهُ طومان باي ملك مصر قائدًا على جيشهِ لمحاربة سلطان الاتراك سليم الاوَّل فكانت الدولة على المصريين سنة ١٥١٦ في خان يونس قريباً من غزَّة . ثم انقلب الغزَّالي على ملكهِ وعدل بالخيانة الى السلطان سليم فولَّاه على دمشق سنة ١٥١٧

الصفحة ٧٧ س ١٨ (طاعون السنتين ٨٩٧ و٨٩٨ هـ) . قد ذكر الدويهي في تاريخ الازمنة طاعوناً آخر عظيماً حدث في بيروت سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) فتك فيها بخلق كثير. ثم ذكر في تاريخ سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٢م) سيلاً جارفاً حدث في دمشق وفي سواحل الشام فهدم جسر نهر الكلب واحدث هيجاناً عظيماً في البحر حتى تجاوز ميناء بيروت

ص ٧٩ س ١٦ (بيروت تحت حكم فخر الدين) استولى عليها فخر الدين سنة ١٥٩٨م بعد انتصارهِ على يوسف باشا سيفا في واقعة نهر الكلب وبسط سلطتهُ على الشوف وكسروان

ص ٨٣ س ٢٤ (الاب فرنسيس سوريانو) نشر الاب غولوبوفتش كمقدمة لكتابهِ المعنون II Trattato di Terra Santa, p. XXIV-LXII ترجمة حياتهِ المطوَّلة . راجع ما كتبناهُ عن قصادتهِ الرسولية في سوريَّة (المشرق ١٢[١٩٠٩]: ٧) . كان اوَّل وصولهِ الى بيروت سنة ١٤٨٠ مع احد عشر راهباً من رهبانيَّتهِ

ص ٨٨ س ١١ (ظاهر العمر) يراجع في المشرق (٢٤ [١٩٢٦]: ٥٣٩—٥٦٠) تاريخ الشيخ ظاهر العُمَر الزيداني الذي نشرهُ جناب الكاتب البارع الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف وفيهِ معلومات وافية عنهُ

ص ٨٩ س ٦ (احمد باشا الجزَّار) اثبتنا لهُ في المشرق (٢٤ [١٩٢٦] : ٣٣١) صورة بيورلدي وجَّههُ سنة ١٧٩١ الى المشايخ الدروز ورعاياهم سكان الشوف والمتن وكسروان يتوعدهم بأشدّ العقاب ان لم يكفُّوا عن محاربة الدولة التركية

ص ٩٢ س ١٩ (النصرانيَّة في بيروت في القرن الثامن عشر) اخذ عدد النصارى يزيد في بيروت خصوصاً في عهد ترقية المشايخ من آل الخازن الى قنصليَّة بيروت. وقد جاء ذكر بعض اسرهم في التاريخ كبيت الدهَّان وابي عسكر الروم وكمشايخ حبيش وبيت التيَّان وبيت ثابت وكميد وفاضل وادَّه الموارنة. وقد مرَّ لنا في المشرق

(٢ [١٨٩٩]: ٦٩٤—٦٩٥) ذكر الشيخ منصور اداه وسعيه في بناء كنيسة القديس جرجس القديمة لطائفتهِ المارونيّة

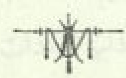
الصفحة ١٠٤ س ٢٤ (اوّل والٍ على بيروت علي باشا) لم تطل مدّة ولاية علي باشا فتوفي بعد سنة ١٨٨٩ فخلفهُ عزيز باشا (١٨٩٠) ثمّ خالد بك (١٨٩٢) ثمّ نصوحي بك (١٨٩٤) ثمّ رشيد بك (١٨٩٧) ثمّ خليل باشا (١٩٠٤) ثمّ ناظم باشا (١٩٠٨) ثم حازم (١٩١١) ثمّ ادهم بك(١٩١٢) ثم بكر سامي بك (١٩١٣) ثم عزمي بك (١٩١٥) واخرهم اسماعيل حقي بك (١٩١٧) خرج من بيروت هارباً مع عمّال الترك لانتصار الدول المتحالفة على المانية ومحالفتها تركية

ص ١٠٦ س ١١ (اوائل تشرين الاوّل) كان ذلك سنة ١٩١٨ بعد هزيمة الاتراك اذ حاول الامير فيصل ان يبسط حكمهُ على بيروت وسوريّة واقام رجالًا من حزبهِ حكموا بضعة اسابيع باسمه

ص ١١٢ س ١٧ (الكلية اليسوعيّة) راجع المقالة التي خصصناها لهذه الكلية واحوالها ولتاريخ سائر فروعها الطبيّة والفقهية والهندسية بنسبة يوبيلها الذهبي في المشرق (٢٣[١٩٢٥]: ٣٢٨—٣٥٢)

ص ١١١ س ١٧ (بيروت الادبية) نضيف الى ما كتبناه هناك ذكر المساعي الطبيّة التي بادرت اليها الدولة الفرنسويّة الكريمة بعد ان فُوِّض اليها الانتداب على سوريّة فباشرت بها بعد الحرب الكونيّة لتنشيط الآداب في انحاء البلاد ولاسيا في بيروت لتبقى لها الرئاسة التي حصلت عليها سابقاً من هذا القبيل. ولم تدّخر في ذلك وسعاً بمنحها حريّة الطباعة وبانفاقها الملايين من الفرنكات على المدارس وبتنشيطها للعلوم وأربابها. وكفى بيروت فخرًا انها جُعلت في هذه السنة ١٩٢٦ مركزًا لمؤتمر اثري تشرّفت لسببهِ بحلول اساطين العلم من دول اوربّة في ربوعها. فزادت بذلك سمعتُها بين الامم الراقية

تمّ بحولهِ تعالى



بيروت: تاريخها وآثارها

فهرس اول لفصول الكتاب وابحاثهِ

القسم الثاني

اخبار بيروت منذ ظهور الاسلام الى يومنا

فهرس ثانٍ

لأعلام الرجال الوارد ذكرهم في الكتاب



فهرس ثالث

لاعلام البلدان والامكنة

فهرس رابع

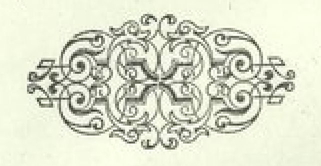
لمواد الكتاب على ترتيب حروف المعجم

AVIS DE L'AUTEUR

Cette Histoire composée durant la guerre à la demande de l'avant-dernier Wali turc de Beyrouth, Azmi bey, fut oubliée pour laisser la place à un autre ouvrage de plus longue haleine intitulé « LE LIBAN », qui fut publié en un grand volume in 4° illustré, avec la collaboration de quelques érudits restés anonymes.

Quand Beyrouth devint la capitale du Liban, on nous réclama notre Histoire ; nous la revîmes alors pour la mettre au point et la mener jusqu'au Mandat français, à qui elle doit sa gloire actuelle. Parue d'abord dans notre Revue al-Machriq, nous en avons fait un tirage à part que nous offrons au public.

Beyrouth
31 *Octobre* 1926
fête du « CHRIST-ROI »



BEYROUTH

HISTOIRE ET MONUMENTS

PAR

le P. LOUIS CHEIKHO s. j.

Extrait de la Revue al-Machriq

BEYROUTH

IMPRIMERIE CATHOLIQUE

1926